

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01050 1629

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

04-B5088

مُصْطَفَى جَوَاد

Jawād, Mustafā

11
1948.3

Sayyidat al-balāt al-'Abbāsī

J38

1950

سَيِّدَاتُ الْبِلَادِ الْعَبَّاسِيَّةِ



١٩٥٠

۹۰۷
ج ۲
س ۶

۶۹۲۹۳.

مقدمة

لم يزل تاريخ بني العباس منتجعاً خصباً لطريف الاخبار ، ومظنة رائقة لفنون الآداب ، ومراداً مؤنساً لمؤرخي التمدن والتقدم ، وسجلاً ضخماً للرسوم « الايتيكيت » والعلوم والانباء الطريفة والاقوال الحصيفة ، والمقالات العجيبة ، والحوادث الرائعة والمحاضرات الممتعة ، والتراجم المؤنقة النافعة .

ومن طريف ما اضطمت عليه احناؤه وتضمنته اثناؤه ، تراجم سيدات من نساء الخلفاء وامهاتهم وذوات قرباهم ، تصفي الافئدة لسماع اخبارهن ، وتوثاق النفوس الى معرفة آثارهن ، وتنصت الآذان لقاص ما أثرهن ، ويبتهج محبو التاريخ بقراءة سيرهن ، فان في كل ذلك ادباً عالياً واخلاقاً زكية زاهية ، واعمالاً بهية ، وسمو نفوس كرائم ، وكرامة طباع عظيمة ، وديانة متينة وتقوى رضية ، وافعال بر واسع ، واحساناً متصلاً ، وفي ذلك ايضاً قدوة سامية لذوات النفوس العلية ، واسوة حسنة للمؤثرات الانسانية على انفسهن ، المفضلات الآخرة على الدنيا ، المستحبات التاريخ الازهر على التاريخ الاغبر .

المؤلف

أم سلمة المخزومية

زوجة أبي العباس السفاح أولى سيرات البطوط العباسي

هي أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد ابن المغيرة المخزومي ، من ذرية عبد الله المخزومي اخي خالد بن الوليد ، تزوجها أول مرة عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ثم مات عنها وبقيت أيماء ، حتى تزوجها أبو شاكِر مسلمة بن هشام بن عبد الملك ، وكان مسلمة يشرب الخمر ولا يفيق من سكره ، ولا يهتم بأمور الدولة الأموية ، مع أن والده هشام بن عبد الملك كان يرشحه للخلافة بعده . ثم توفي والده سنة ١٢٥ هـ ، وولي الخلافة بعده الوليد الصغير ابن يزيد ابن عبد الملك ، فأرسل الوليد ابنه العباس لأحصاء ما في خزائن هشام بن عبد الملك وأبنائه وأخذ ما يأخذ من أموالهم ، فأحصاها واستقصاها ، سوى أموال مسلمة بن هشام زوج أم سلمة المخزومية فإن الوليد كان يرعى له أيادي ييضا ، ولكن أم سلمة لضجرتها من زوجها في استهتاره بالخمر كتبت الى العباس بن الوليد كتاباً تقول فيه : « إن مسلمة ما يفيق من الشراب ولا يهتم بشيء مما فيه إخوته ولا بموت أبيه » ، وكأنها شكته اليه وحرضته عليه . ولما أتى مسلمة بن هشام الى العباس بن الوليد زائراً أتته

العباس ووبخه على الشراب وعاتبه وقال له : « كان ابوك
يرشحك للخلافة ونحن نرجوك ، فما هذا الذي بلغني عنك ؟ » فأنكر
مسلمة ذلك ، وقال له : « من أخبرك بذلك ؟ » قال : كتبت إليّ
به زوجتك أم سلمة . فطلتلقها في ذلك المجلس . جرى كل ذلك
في دمشق ، وما حولها ، فخرجت أم سلمة بعد طلاقها إلى فلسطين
مع جواربها وحشمها وأموالها وسكنت فيها ؛ وكان بنو العباس
المطالبون بالخلافة يسكنون فيها ؛ فبينما هي ذات يوم جالسة إذ
مرّ بها أبو العباس عبد الله بن محمد السفاح ، وكان جميلاً وسيماً
كامل الشباب أبيض البشرة ، فحلي في عينيها ، فسألت عنه وأعلمت
بنسبه وأنه عزّب ، فأرسلت إليه مولاتها تعرض عليه أن يتزوجها
وقالت لها : سامي عليه وقولي له : هذه سبعمائة دينار أوجه بها
إليك . وكان لأم سلمة مال عظيم وجوهر وحشم ، وكأنها علمت
فقره واملاقه ، فاتته المولاة ، فأبلغته سلام سيدتها وأدت إليه
رسالتها ، فقال لها : قولي لسيدتك أنا مملق لا مال عندي ، ولو
كان عندي من المال ما أَرْضاهُ لك لفعلت ، فقالت المولاة :
هذه سبعمائة دينار بعثت بها سيدتي إليك لتصلح بها شأنك ،
فاخذ المال وأقبل إلى أخي أم سلمة فخطبها إليه ، فزوجه إياها
على صداق مقداره خمسمائة دينار ، وأهدى إليها مائتي دينار ،
ودخل عليها من ليلة ذلك النهار الذي عقد فيه الاملاك ،
فوجدوها جالسة على منصة وكل عضو منها مكمل بالجوهر ، ثم
دعت بعض جواربها وغيوت ملابسها ولبست ثياباً مصبغة ،
وحظيت عنده وحلف لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرّى (أي

لا يتخذ جارية مملوكة في محل مستور عنها ، كما كانت عادة الرجال الاثوياء) ، وغلبت عليه غلبة شديدة وملكت أمره وقلبه ، حتى ما كان يقطع أمراً إلا بمشورتها واستئذنها ، ولا يستطيع زواجاً ولا تسرياً .

وكان دعاة بني العباس في تلكم الايام قد احكموا أمورهم ووطدوا دعوتهم ، وكثروا أعوانهم في ايران وفي العراق ، فاستدعوا أبا العباس السفاح من فلسطين الى الكوفة ليبايعوه بالخلافة ، فانتقل اليها وبويع بها سنة ١٣٢ وعمره سبع وعشرون سنة ، ثم انتقل من الكوفة الى الانبار وبني عندها مدينة سماها الهاشمية ، وسكنها هو وأرباب دولته ، والانبار مدينة كانت على نهر الفرات من الجانب الشرقي ، فوق الفلوجة ، وانتقلت العمارة منها إلى هاشمية السفاح وصارت تسمى الانبار ، ثم زالت الانبار الحديثة في القرن الحادي عشر للهجرة ، لان أخبارها انقطعت في هذا القرن ، ولا تزال آثارها معروفة إلى اليوم .

ولما كان ابو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس وكانت أم سلمة الخزومية زوجته ، تعدت أولى سيدات البلاط العباسي ، وقد لبثت مع زوجها السفاح في الهاشمية عاصمة الخلافة العباسية يومئذ مدة خلافته ، وكان مجلس السفاح من مفاخر مجالس الخلفاء ، فقد وهب الله تعالى - إلى جمال الصورة - كمال الخلق وصواب الرأي واستقامة السيرة وحسن التدبير ووافر الادب ، حتى لقد ولي الخلافة قبل أخيه أبي جعفر المنصور ، مع أن المنصور كان اكبر منه سنّاً . وأخباره في الاحسان الى بني الحسن العلويين

مشهورة . وكان من ندماء السفاح في الادب والأخبار خالد بن صفوان التميمي ، وبما نقل من أخباره الطريقة أنه دخل ذات يوم على السفاح فوجده وحده ، فجلس ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، إني فكرت في أمرك ، وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة ، فإن مرضت مرضت أنت ، وإن غابت غبت أنت وحرمت يا أمير المؤمنين نفسك التلذذ بالجواري الطريقات ، ومعرفة أخبار حالاتهن ، والتمتع بما تشتهي منهن . فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة التي تشتهي لجسها فهي الغيداء ، وإن منهن البضة البيضاء التي تحب لروعتها ، والسمراء اللعساء والصفراء العجزاء الذهبية من مولدات المدينة والطائف واليامة ، ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر ، تفق بمحادثتها وتلذ بخلوها ، ومنهن المولدات البصريات والكوفيات ، ذوات القدود المهففة والايواسط المحصرة والاصداغ المزرفنة والعيون المكحلة والشدي المحققة ، وأين أمير المؤمنين من بنات الاحرار والنظر الى ما عندهن وحسن الحديث منهن ؟ ولو رأيتهن ورأيت حسن زين وزينتهن لرأيت شيئاً حسناً .

وأخذ خالد يتمطق بلسانه ويجيد وصف الجواري ويطنب في محاسنهن بحلاوة لفظه وجودة وصفه ، فشوق أبا العباس السفاح إليهن ، ولما فرغ من كلامه قال له أبو العباس : ويحك يا خالد ، ما سلك مسامعي كلام أحسن من هذا ، فأعد علي كلامك فقد وقع مني موقعاً . فأعاد عليه خالد الكلام أحسن مما ابتدأه ، ثم استأذنه في الانصراف فانصرف .

وبقي أبو العباس السفاح مفكراً فيما سمع منه مغموماً ،
 فدخلت عليه امرأته أم سلمة ، فلما رآته مطرقاً مفكراً مهسوماً
 قالت له : إني أستغرب حالك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر
 تكرهه ، أو أتاك خبر فارتعت له ؟ قال : لم يكن من ذلك
 شيء . قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوي عنها ، ويتفادى من
 الجواب ، فلم تزل تستخبره حتى أخبرها بمقالة خالد بن صفوان
 التميمي . قالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ فقال السفاح : سبحان
 الله ينصحنني وتشتمينه ؟! فخرجت من عنده مغضبة ، وأرسلت
 إلى خالد جماعة من الجند في أيديهم عصي غليظة وأمرتهم أن لا
 يتركوا منه عضواً صحيحاً . وحكى خالد عن نفسه قال :
 انصرفت من مجلس السفاح إلى منزلي ، وأنا مسرور بما رأيت منه
 وإعجابه بما ألقىته إليه ، ولم أشك في أنه سيبعث إليّ بصلة ،
 فلم ألبث طويلاً حتى رأيت جماعة من الجند ، وأنا قاعد على
 باب داري ، ولما رأيتهم قد أقبلوا نحوي أيقنت بالجائزة ، ثم
 وقفوا عليّ فألواعني ، فقلت : ها أنذا خالد بن صفوان ،
 فسبق إليّ واحد منهم وأهوى إليّ بحشبة ، فوثبت ودخلت
 منزلي وأغلقت على نفسي الباب ، ومكثت أياماً ثلاثة على تلك
 الحال ، لا أخرج من منزلي ، ووقع في نفسي أن أم سلمة هي
 التي سلطت هؤلاء عليّ . وطلبتني أبو العباس السفاح طلباً شديداً ،
 فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا عليّ وقالوا لي : أجب
 أمير المؤمنين . فأيقنت بالموت وقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ،
 لم أر دم شيخ أضيع من دمي . فركبت إلى دار السفاح

وليس عليّ لحم ولا دم من الخوف ، فلقبته منفرداً ، ورأيت في المجلس بيتاً عليه ستور رفيقة وسمعت حركة خلف الستور . وقد شعر خالد بن صفوان أن وراء الستور أم سلمة أو من تنقل لها الحديث ، قال خالد : فقال لي أبو العباس لم أرك منذ ثلاث ليالي . فقلت : كنت عليلاً يا أمير المؤمنين . قال : ويحك إنك وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يسلك مسامعي قط كلام أحسن منه ، فأعده علي ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر ، وأن أحداً ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا ضر وتنقص ، فقال : ويحك لم يكن هذا في الحديث ، قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وأخبرتكم أن الثلاث من النساء كأنها في القدر يُغلى عليهن (والاثافي المناصب) فقال أبو العباس : برئت من قرابتي من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إن كنت سمعت هذا منك في حديثك ، فقلت : وأخبرتكم أن الأربع من النساء شر مجموع لصاحبهن يشينه ويهرمنه ويسقمه ، قال : والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبلاً هذا . قلت : بلى والله . فقال السفاح : وبلك تكذبني ؟ قلت : وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين . قال : استمر في حديثك . قلت : وأخبرتكم أن أبكار الجواري كالرجال . قال خالد : فسمعت الضحك من وراء الستور . فقلت : نعم وأخبرتكم أن بني مخزوم رياحين قريش ، وأنت عندك رجانة من الرياحين وأنت تطمع بعينك إلى حرائر النساء وغيرهن من الاماء ، فسمعت من وراء الستور

قائلة تقول : صدقت والله يا عماء وبورت ، بهذا حدثت أمير المؤمنين ولكنه بدل وغير ونطق عن لسانك ، فقال السفاح : مالك ، قاتلك الله وأخزأك ، وفعل بك وفعل ؟ .. فتركته وخرجت منسلا وقد أيقنت بالحياة . وما شعرت إلا برسول أم سلمة قد صاروا الي ومعهم عشرة آلاف درهم ونحت ثياب وبرذون .
 وولد للسفاح من أم سلمة ابن وبنت هما محمد وريطة ، فالابن سماه باسم أبيه والبنت سماها باسم أمه ربيعة بنت عبيد الله بن عبد الممدان الحارثية ، وقيل رائطة ، وتوفي أبو العباس السفاح في آخر سنة ١٣٦ بمدينته عن إحدى وثلاثين سنة ، ودفن قرب الانبار وقد زال قبره وعفا .

وبما يؤثر من أخبارها أن أبا دلامة زند بن الجوف الشاعر الكوفي الاسود دخل عليها بعد وفاة أبي العباس فعزاها به وبكى وبكت معه ثم أنشدتها قوله :

من مجمل في الصبر عنك فم يكن
 صبري عليك غداة بنت جملا
 يجدون أبدالاً به وأنا امرؤ
 لو مت وجداً ما وجدت بديلا
 إني سألت الناس بعدك كلهم
 فوجدت أجود من سألت بخيلا

فقالت أم سلمة : لم أر احداً أصيب به غيري وغيرك يا أبا دلامة . فقال : لسنا بسواء يرحمك الله ، لك منه ولد وما ولدت أنا منه ، فضحكت ، وقالت له : لو حدثت الشيطان

لاضحكته . ولم تكن منذ مات السفاح ضحكت إلا ذلك
الوقت .

وتزوجت أم سلمة بعد السفاح زوجاً رابعاً هو عبدالله
ابن عبد الحميد الخزومي ، وصار اليه مال عظيم وأصبح موسراً
وكان يجزل عطايا الشعراء ثم إنها اتهمته بجارية لها فاحتجبت عنه
ولم تعد اليه حتى مات . أما أم سلمة فإني لم أقف على تاريخ
وفاتها ، على أنها كانت طويلة العمر كثيرة الأزواج .

الخيزران زوجة المهدي

وأم هرون الرشيد

كانت هذه السيدة المستفيضة الاخبار ، المستغربة السيرة ، في اول امرها ، جارية مملوكة من مولدات اليمن . اشتراها محمد المهدي من نخاس اي دلال يبيع المماليك . وقيل انها كانت قبل انتقالها الى عصمة الخليفة المهدي لرجل من قبيلة ثقيف ، فقالت ذات يوم لمولاها الثقيفي : اني رايت في المنام كيت وكيت ، وكانت قد رأت الشمس والقمر يبرزغان من جسدها ، فقال لها : لست من جواربي مثلي ، انت تلدين خليفتين ، فقدم بها مكة فباعها في الرقيق أي المماليك ، فاشتريت وعرضت على ابي جعفر المنصور ، فقال لها : من اين انت ؟ قالت : مولدي مكة ومنثني بجرش ، وجرش صقع من اصقاع اليمن ، قال : افلك احد ؟ قالت : ما لي احد إلا الله ، وما ولدت أمي غيري . فقال المنصور لاحد غلمانه : اذهب بها إلى المهدي وقل له : انها تصلح للولد . فأتى بها المهدي فوقع منه كل موقع . والرواية الاولى - اعني كون المهدي مشترياً لها - مؤيدة بما ذكره ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في كتاب « الاذكياء » فقد ذكر فيه انه لما عرضت الخيزران على المهدي قال لها : والله

يا جارية انك لعل غاية المتسني ، ولكنك حمشة السابقين (يعني
دقيقة السابقين) فأجابته بجواب دل على ذكاء وفطنة فيها ،
فقال : اشتروها لي فاشتروها ، فحظيت عنده وولدت له موسى
الهادي وهرون الرشيد . وصارت أم خليفتين ، ونادر في التاريخ
ان تكون امرأة أم خليفتين فهي مثل ولادة ام الوليد
وسليمان ابني عبد الملك بن مروان .

ولما تمكنت عند المهدي ورأت ان في ابنيها موسى وهرون
ما يعصمها من كل تغير منه عليها باحت بالحقيقة وقالت له :
ان لي اهل بيت بجرش في اليمن ، فقال المهدي : ومن لك
من الاهل ؟ قالت : لي اختان ، اسم احدهما « اسماء » واسم
الآخرى « سلسل » ولي ام وأخوان ، فكتب المهدي باحضار
اهلهما فأحضروا ، فتزوج اخوه جعفر بن المنصور « سلسل »
فولدت منه « زبيدة » المشهورة التي تزوجها هرون الرشيد ،
وبقيت اسماء عذراء برهة حتى تزوجها المهدي بحيلة احتالها على
الخيزران ، وذلك أنه لما عزم على هذا الامر قال للخيزران :
قد ولدت لي رجلين وقد بايعت لهما بالخلافة من بعدي ، وما احب
أن تبقي أمة أي مملوكة ، واحب ان اعتقك ثم تخرجين الى
مكة وتقدمين فأتزوجك . قالت : الصواب رأيت يا أمير
المؤمنين ، فأعتقها وصارت حرة وخرجت الى مكة ، فاتهمز
المهدي هذه الفرصة فتزوج اسماء ومهرها مليون درهم ووهب لها
مليون درهم أخرى ، ولما احسن بقدم الخيزران من مكة خرج
لاستقبالها ، وكانت الأخبار بزواجه أختها قد بلغت ، ويئست منه

لان الشريعة قد حرمت الجمع بين الاختين كما هو معلوم ، فلما
 رآته قالت له : ما خبر اسماء وكم وهبت لها ؟ قال : من اسماء ؟
 قالت : امرأتك . قال : إن كانت اسماء امرأتي فهي طالق .
 فقالت الخيزران : طلقها حين علمت بقدمي . قال : أما إذ
 علمت فقد مهرتها الف الف درهم وهبت لها الف الف درهم ،
 ثم عقد المهدي على الخيزران وتزوجها . وأخبارها كما قلنا مستفيضة ،
 فمن ذلك ما ذكره الواقدي قال : دخلت يوماً على الخليفة
 المهدي فدخل الى دار الحرم ثم خرج متنكراً مبتلياً غيظاً ، فلما
 جلس قلت : يا أمير المؤمنين خرجت على خلاف الحال التي
 دخلت عليها ! فقال : نعم ، دخلت على الخيزران ، فوثبت عليّ
 ومدت يدها إليّ ومزقت ثوبي وقالت لي : يا قشاش ، أي
 خير رأيت منك ؟ وأنا اشتريتها من نخاس ورأت مني ما رأت
 وعقدت لابنيها ولاية العهد . ويحك أفأنا قشاش ؟ قال الواقدي :
 فقلت : يا أمير المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « إن النساء يغلبن الكرام . ويغلبهن اللثام » وقال : « خيركم
 خيركم لاهله وأنا خيركم لاهلي » وقال : « قد خلقت المرأة من
 ضلع عوجاء إن قومتها كسرتهما » وحدثته في هذا الباب بكل
 ما حضرني ، فسكن غضبه وأسفر وجهه وأمر لي بألفي دينار
 وقال : أصلح بهذه من حالك ، فأخذتها وانصرفت ، فلما وصلت
 الى منزلي وافاني رسول من الخيزران فقال لي : تقرأ عليك ستي
 السلام وتقول لك : يا عم قد سمعت جميع ما كلمت به أمير
 المؤمنين فأحسن الله جزاءك ، وهذه ألفا دينار إلا عشرة

دنانيو بعثت بها اليك لاني لم أحب أن أساوي بين صلي وصلة
أمير المؤمنين . ووجهت إليّ بأثواب .

وهذا الخبر يدل على صرامتها وقوة قلبها وغلبتها على
المهدي ، وقد دام سلطانها عليه حتى وفاته سنة ١٦٩ هـ ،
وولاية ابنها موسى الهادي للخلافة ، ثم انها أرادت أن تستبد
بأمور الخلافة في عهد ابنها الهادي ، وتدخلت في كثير من الشؤون ،
فهي أولى سيدات البلاط العباسي اللاتي تحكمن في الدولة ،
وزاولن السياسة والولاية ، وقيل : إن الهادي لما صارت اليه
الخلافة نابذها ونافرها لأنه رآها تفتت عليه في أموره (اي
تفعل من دون رأيه) ، وتسلك به مسلك أبيه المهدي من قبله
في الاستبداد بالامر والنهي ، فأرسل اليها ذات يوم يقول : ولا تخرجي
من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل ، فانه ليس من قدر النساء
الاعتراض في أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسيحك وتبتلك ،
والك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك ، وكانت كثيراً
ما تكلمه في الخواثج ، فكان يجيبها إلى كل ما تسأله قياماً
بحق الامومة وبراً بها ، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته ،
وانثال الناس على بابها وطمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو إلى
حضرتها ، حتى لقد رسم أصحابها أن لا يقف أحد ببابها ركباً
دايته ، كائناً من كان بل يجب عليه النزول ، وكلمت ابنها يوماً
في امر لم يجد إلى اجابتها اليه من سبيل ، فاحتج بحجة ، فقالت
له : لا بد من اجابتي اليها . قال : لا أفعل . قالت : فاني
قد تضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك المالكي ، وهو من رجال

الدولة العباسية . فغضب موسى الهادي وقال : ويلى على ابن
 الفاعلة ، قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قضيتها لك . قالت :
 إذن والله لا أسألك حاجة أبداً . فقال : إذن والله لا أبالي .
 وحمي وغضب ، فقامت مغضبة . فقال لها : مكانك تستوعي كلامي
 والله وإلا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله - ص - لئن بلغني
 أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصتي أو خدمني
 لأضربن عنقه ولاقبضن ماله ، فمن فعل فليأزم ذلك ، ما هذه المواقب
 التي تغدو وتروح الى بابك في كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك
 أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك ، إياك ثم إياك ، ما فتحت
 بابك للملتي أو لذمي ، فأنصرفت من عنده ما ترى شيئاً مما في
 طريقها ولم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها ، ومالت كل الميل
 الى ابنها هرون الرشيد .

وقيل إنه بعث اليها بلوث من ألوان الطعام وأرسل يقول
 لها : أكلت منه فاستطبت ، فكلي منه ، وكان الطعام مسبوماً ،
 فقالت لها جاريتها خالصة : أمسكي حتى تنظري فاني أخاف ان
 يكون فيه شيء تكرهينه ، فجاءوا بكلب فأكل منه فتساقط
 لحمه ، فأرسل اليها بعد ذلك يقول : كيف رأيت الطعام ؟
 فقالت : وجدته طيباً ، فقال : لم تأكلي منه ولو أكلت لكنت
 قد استرحت منك ، متى أفلح خليفة له أم ؟

وجمع يوماً القواد الذين يأتون باب الخيزران فقال لهم :
 ايما خير انا ام انتم ؟ قالوا : بل انت يا امير المؤمنين ، قال :
 فأيما خير أُمي أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أمك يا امير المؤمنين .

قال : فأياكم يحب ان تتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقولوا : فعلت أم فلان وصنعت أم فلان؟ قالوا : ما احد منا يحب ذلك . قال : فما بال الرجال يأتون أمي فيحدثون بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة ، فشق عليها ذلك فاعتزلته وحلفت ألا تكلمه ، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة ، ثم انه أراد ان يخلع أخاه هرون الرشيد من ولاية العهد ويبايع لابنـه جعفر ، فخافت الخيزران على هرون منه فدست اليه من جواربها وهو مريض من قتلته بالغم والجلوس على وجهه فاخسق . على انه قد اشتهر في الاخبار خروج بثرة اي قرحة في جوفه كانت سبباً في موته . وقيل ان علته بقيت ثلاثة ايام فقتلته في شهر ربيع الاول من سنة « ١٧٠ » . وولي الخلافة بعده اخوه هرون الرشيد ، وللخيزران اخبار وحوادث جرت لها في ذلك العهد ، مذكورة في مظانها .

وقد توفيت الخيزران في خلافة ابنها الرشيد سنة ١٧٣ ، ودفنت في احدى مقابر الرصافة وهي مقبرة الامام ابي حنيفة ، وكانت البانوقة بنت المهدي قد دفنت فيها قبل الخيزران ، ثم اشتهرت المقبرة بمقبرة الخيزران ، واصل بلدة الاعظمية الحالية هي مقبرة الخيزران المذكورة ، ومن العادة عندنا نحن المسلمين ان تتحول مقابرنا الى بلدان .

ريطة بنت السفاح

وزوجة الخليفة المهدي

هذه السيدة العباسية ، هي ريطة بنت ابي العباس السفاح زوجة الخليفة المهدي ، اما اسمها « ريطة » فهو مأخوذ من الريطة المنسوجة وهي الملاءة اي النفوف بهيئة قطعة واحدة ، لا بلفقين كالزبون والصاية ، وقيل هي كل نسيج من الملابس رقيق لين ، فريطة اسم يدل على اللطافة والرفقة والنعومة .

لخوفد اشتهرت من السيدات العباسيات ريطتان : ريطة بنت السفاح هذه ، وريطة بنت العباس بن علي زوجة المتوكل على الله العباسي ، وهي التي اراد المتوكل منها ان تظم شعرها وتجعله قصيراً على مودة الجواري المملوكات في ذلك الزمان ، فأبت وامتنعت ان تفسير شعرها ، فاعلمها انه يطلقها إن لم تفعل ذلك ، فاختارت الطلاق فطلقها .

وأما ريطة بنت السفاح فقد توفي والدها السفاح سنة ١٣٦ هـ ، على ما هو معروف ، ولم يكن له غيرها وغير ابن اسمه محمد ، وكان أيداً شديداً قوياً وولاه عمه ابو جعفر المنصور مدينة البصرة ، وكانت اخته ريطة قوية ايضاً بخلاف اسمها الدال على اللطافة والرفقة والنعومة . قيل كان محمد بن السفاح يلوي العمود

الحديد ، ثم يلقيه إلى أخته ربطة فتعدله وتومه كما كان .
تزوج ربطة هذه ابن عمها المهدي في خلافة أبيه المنصور ،
وكان ذلك في سنة ١٤٤ وولدت له ولدين ذكرين هما عبيد الله
ابن المهدي وعلي بن المهدي . وأخبار هذه السيدة العباسية
قليلة ، وهي قبل زواجها اقل ، فمن الأخبار الطريقة التي لها
شأن فيها ، ان أبا دلامة زناد بن الجون الشاعر الاسود ، كان
على اتصاله بأبي جعفر المنصور كارهاً للصلوات مستهتراً بشرب
الخمر ، فألزمه المنصور القيام بفرائض العبادات في شهر رمضان
خاصة ، فقال له أبو دلامة « البلية في شهر أصلح منها في طول
الدهر » . فكان المهدي بن المنصور يبعث إليه في شهر رمضان
في كل ليلة حرسياً يجيء به للعبادة ، فشق ذلك عليه وفزع الى
الخيزران وكل أصحاب المهدي ليشفعوا له في الاعفاء من القيام
في هذا الشهر المبارك ، فلم يجيبهم المهدي الى طلبهم ، فقال له
أبو عبيد الله معاوية الأشعري الكاتب : الدال على الخير كفاعله
فكيف شكرك ؟ قال : أتم شكر . قال : عليك بربطة
زوجة المهدي فانه لا يخالفها . فقال أبو دلامة : صدقت والله .
ثم رفع اليها رقعة يقول فيها :

أبلغا ربطة أني كنت عبداً لابيها
فمضى رحمه الله وأوصى بي اليها
وأراها نسيته مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم يثني مشية ما أشتيها
فأندأ لي ليلة القدر كأنني أبتغيها

تنطح القبة شهراً جهتي لا تأتليها
ولقد عشت زماناً في فيافي وجهها
في ليالٍ من شتاء كنت شيخاً اشتبهها
قاعداً أوقدُ ناراً لضبابِ اشوبها
وصبح وغبوق في غلاب احنسيها
ما ابالي ليلة القدر ر ولا تسمعنيها
فاطلبي لي فرجاً منها وأجري لك فيها

فلما قرأت الرفعة ضحكت وارسلت اليه بجواب تقول فيه :
« اضطر حتى تمضي ليلة القدر » فكتب اليها « اني لم اسألك ان
ان تكلميه في اعقائي عاماً قابلاً ، واذا مضت ليلة القدر فقد فني
الشهر » . وكتب تحت ذلك هذه الابيات :

خافي الهك في نفس قد احتضرت قامت قيامتها بين المصلين
ما ليلة القدر من همي فاطلبها اني اخاف المنايا قبل عشرين
يا ليلة القدر قد كسرت ارجلنا يا ليلة القدر حقاً ما تمينا !
لا بارك الله في خير أو مله في ليلة بعد ما قمنا ثلاثين
فلما قرأت الابيات ضحكت ودخلت الى المهدي ، فشفت له
اليه وانشدته الشعرين ، فضحك المهدي حتى استلقى ودعا بابي دلامة
وكانت ربيعة معه في حجلة (والحجلة بيت مزين كقبة العروس)
فاخرج المهدي رأسه اليه وقال له : قد شقنا ربيعة فيك وامرنا
لك بسبعة آلاف درهم ، فقال ابو دلامة : اما شفاعة سيدي في
حتى اعفيتني فاعفاها الله من النار ، واما السبعة الآلاف فما اعجبني
ما فعلته ، اما ان تتمها بثلاثة آلاف فتصير عشرة آلاف ، واما

ان تنقصني منها الفين فتصير خمسة آلاف ، فاني لا اعلم حساب
السبعة ، فقال المهدي : قد جعلتها خمسة آلاف . قال ابو دلامة :
اعيدك بالله ان تختار ادنى الخالين وانت انت . فعبث به
المهدي . ثم كلمته ربيعة فيه ، فاتتها له عشرة آلاف درهم ، فأحيل
على الخازن واخذها .

ومن اخبار ابي دلامة معها انها وعدته مرة ان تعطيه جارية ،
فطلته ولم تنجز الوعد ، حتى امتدحها بمدة قصائد ، كل ذلك وهي
لا تفي له بالوعد ، ثم خرجت من بغداد الى مكة حاجرة ،
فعبثت ورجعت ، وكانت لها جارية يقال لها ام عبيدة ،
وكانت برزة تخرج وتكلم الرجال وتبلغ رسائل سيدتها ربيعة ،
فقال ابو دلامة لام عبيدة حين عيل صبره ووهن احتماله :

ابلغي سيدتي ان شئت يا ام عبيدة
انها ارشدنا الله وان كانت رشيدة
وعدتني قبل ان تخرج للحج ولبسده
فتنظرت وارسالت بعشرين قصيدة
كلما تخلت اولى بدلت اخرى جديدة
انني شيخ كبير ليس في بيتي قعيدة
غير مثل الغول عندي ذات اوصال مديدة
وجبها اسمع من حوت طري في عصيده
ذات رجل ويد كتابها مثل القديده

فدخلت ام عبيدة على السيدة ربيعة فانشدها الشعر ، فأمرت له بجارية
ومائتي دينار للنفقة عليها . وفي المحرم من سنة ١٦٩ هـ توفي الخليفة المهدي

وولي الخلافة ابنه موسى الهادي ، وكانت الزندقة مستفحلة في عهد
 ابيه وعهده ، وكلاهما جد في طلب الزنادقة وقتلهم ، وكان من
 مشاهير الزنادقة يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة
 ابن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي ، وكان المهدي قد علم بزندقته
 واراد قتله ، فحال بينه وبين ذلك انه كان قد جعل على نفسه
 لله عهداً ألا يقتل هاشمياً ان ولي الخلافة ، وارصى ابنه موسى
 الهادي بقتله في اول خلافته ان ولي الخلافة ، فلما تولاه امر ان
 يحنق يعقوب بين الفرش فيحنق ، وكان ليعقوب الزنديق هذا
 امرأة غير هاشمية اسمها خديجة ، وكانت زنديقة كزوجها ، وكان
 له من الاناث ابنتان احدهما تسمى فاطمة ، فوجدت حبلى من
 ابيها ، فارسل الهادي بها وبخديجة الى السيدة ربيعة لتعلم حقيقة
 الحال وتخبره بها فرأتها مكتحلتين مختضبتين ، فلامتها ربيعة
 وانبتهما ووجعتهما اقبح التوبيخ على زندقتهما ، واكثرت اللوم على
 فاطمة في كونها حبلى من ابيها ، وذهابها مذهب الاباحه ، فقالت
 فاطمة : اكرهني ابي وارتكب مني ما ارتكب . فقالت لها
 ربيعة : فما هذا الحجاب والكحل والسرور ان كنت مكرهة ؟
 لعنك الله ، ثم امر بها وبخديجة فضربتا على رؤوسهما بشيء يقال
 له الرعبوب ، حتى هلكتا من الالم والقرع .

وقد جاء في اخبار السيدة ربيعة ان ابا دلامة الشاعر الاسود
 الذي ذكرناه قبل هذا ، انشدها ابياتاً عند وفاة ابيها السفاح ،
 الا ان المحققين رفضوا ذلك ، وذكروا انه انشدها ام سلمة بنت
 يعقوب بن سلمة وقد ذكرناها .

وادركت السيدة ربيعة عدة شهور من خلافة الرشيد وماتت
ببغداد ، وقيل إنها توفيت في اواخر ايام موسى الهادي سنة
١٧٠ ، والفرق بين القولين قليل لا يتجاوز عدة اشهر ، واذ
كانت ولادتها مجهولة التاريخ ، لم نستطع معرفة عمرها ، الا اننا
ذكرنا انها تزوجت سنة ١٤٤ ، فان قدرنا انها تزوجت وعمرها
« ١٦ » ، سنة كان عمرها اربعين سنة ، وذلك يعني انها ماتت قبل
ان تخلع ثوب الشباب ، ونظن انها دفنت في مقابر قريش اي
الكاظمية الحالية لانها كانت قرشية عباسية .

عليّة بنت المهدي

وافقت لهريرة الرشيد

هذه السيدة خالدة الاسم مع صاحبات الفنون الرفيعة في العالم ، بل هي أشهر العباسيات من بيت الخلافة في تاريخ الفنون . على أن كونها بنت خليفة واخت خليفتين وزوجة امير ، لم يكن يضمن لها اشتهار السيرة ، ولا كرامة الاخبار ، ولا براعة الآثار ، لولا الشعر والغناء ولا سيما الغناء ، فانها بلغت فيه المحل الاسمي من الاجادة والاتقان . وما ادراك ما الغناء ؟ قلما تجد روحاً مستغنية عنه ، حتى الصوفية واهل التكايا والزوايا ، لا يستغنون عنه ابداً ، وليس من السهل ان يكون الانسان بارعاً فيه . كانت ام عليّة جارية مغنيّة اسمها مكنونة ، والمكنونة صفة للدرّة العظيمة ، واللؤلؤة الوسيعة ، وكانت في اول امرها مملوكةً لزوجة احد بني العباس بالمدينة المنورة ، معروفة بالجمال والوسامة ، فاشتراها المهدي ابن ابي جعفر المنصور في حياة ابيه بمائة الف درهم ، وهي زهاء عشرة آلاف دينار وستر امرها عن ابيه المنصور حتى مات وصار هو خليفة بعده ، وكانت عنده الخيزران ام الهادي والرشيد والبانوق ، فاستولت عليه واستأثرت به حتى كانت الخيزران تقول : ما ملك المهدي امرأةً اغلظ عليّ من مكنونة .

وفي سنة ١٦٠ هـ ، ولدت المكنونة للمهدي طفلة ، فسميت
 «عليه» تصغير عليه ، ونشأت في بيت الخلافة العباسية ببغداد ،
 وهذبت وادبت ، وصارت تقول الشعر الجيد ، وتضع اصوات
 الغناء البارة ، قال اسماعيل بن ابراهيم الكاتب ورواه عنه
 ابو الفرج الاصفهاني «كانت عليه حسنة الدين وكانت لا تغني ولا
 تشرب النبيذ الا اذا كانت معتزلة للصلاة - يعني الاعتزال الشرعي -
 قال : فاذا طهرت اقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب ،
 فلا تلبس بشيء غير قول الشعر في الاحيان ، الا ان يدعوها
 الخليفة الى شيء - يعني الغناء - فلا تقدر على خلافه ، وكانت
 تقول : ما حرم الله شيئاً الا وقد جعل فيما حلل منه عوضاً ،
 فبأي شيء يخرج عاصبه والمنتبهك لحرمة الله ؟ وكانت تقول : لا غفر
 الله لي فاحشة ارتكبتها قط ، ولا اقول في شعري الا عبثاً ،
 ولما مات ابوها المهدي انقطع اليها ابو حفص عمر بن عبد العزيز
 الشطرنجي الشاعر مولاها .

وقد ذكروا انها كانت من احسن الناس واظرفهم ، ولكن
 جبينها كان واسعاً سعة تذهب جمال وجهها ، فاتخذت عصاة
 مكللة بالجوهر لتستر بها جبينها ، وبذلك احدثت سبوا اي مودة ،
 من احسن المودات التي ابتدعتها النساء لرؤوسهن ، والغالب في
 مودة النساء ان يكون المراد بها ستر عيب من عيوب ابدانهن ،
 ثم يغلب التقليد على سائر النساء ، فنهين من يضعن شيئاً من
 جاهن باتباع السبب الجديد اي المودة الجديدة ، فيخسرن من
 حيث يأملن الانتفاع ، ويسمجن من حيث يتوخين الوساوسة

والجمال .

ولقد ذكرت في كلامي على سيرة العباسة بنت المهدي ان
المهدي كان من الخلفاء الذين حرروا المرأة من الحصر والقصر ،
وان ابنته البانوقة كانت تسيّر راصية بين يديه سافراً على هيئة
الجند . وانما قد مال الى التحرير النسوي بسبب ما رآه بين امه
ام موسى بنت منصور الحميرية وابيه ابي جعفر المنصور ، فان
امه اشترطت على ابيه ان لا يتزوج عليها ولا يتخذ سرية ،
وكتبت عليه بذلك كتاباً اكده واشهدت عليه الشهود والثقات
المعدلين . فبقي عشر سنوات من خلافته يكتب الى الفقهاء من
اهل الحجاز واهل العراق ، يستفتيهم في الزواج عليها وابتياح
الجواري السراري . وكانت ام موسى اذا علمت مكان الفقيه
بادرته وارسلت اليه بال فلا يفتي المنصور بما يريد . ولم يستطع
المنصور ان يخل بشرائطها طول حياتها . ثم ان في التاريخ ما
يدل على ان المرأة القحطانية كالحميرية المذكورة وغيرها اكثر حرية
واستقلالاً من المرأة العدنانية ، سواء ذلك في الجاهلية والاسلام .
فلا عجب اذن في نشأة عليّة وغيرها من النساء المتحررات
في بيت الخليفة المهدي ، وبما اغرم عليّة بالغناء اقبال اخيها لايبها
ابراهيم بن المهدي على هذا الفن الجليل وحيوروته رأساً فيه واستاذاً ،
حتى قال الناس : ما اجتمع في العصور الاسلامية قط اخ واخت ،
احسن غناءً من ابراهيم بن المهدي واخته عليّة ، ولكنها سبقته
في ذلك ، فكانت اذا غنت تنكاد تحرك الحجر وتطير الوقور ،
وتستخف ارباب العقول الراجحة ، وتقتل النفوس المغرمة طرباً .

ولقد كان الناس في عصرها يقولون ايضاً : لم ير في جاهلية
ولا اسلام احسن غناءً منها ومن اخيها ابراهيم .

ولكنها لم يكن يسمعها الا اهلها ، وكانت قد تزوجها الامير موسى
بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن
عبد المطلب ، وحجبت بيت الله الحرام في ايام خلافة اخيها
الرشد ، وخرجت معه نحو الري مرة ، فلما بلغت بلدة المرج
بين خاتقين وهذان عملت بيتين وصاغت فيها لحناً من مقام الرمل
وغنت بهما وهما :

ومغترب بالمرج يبكي لشجوه وقد غاب عنه المسعدون على الحب
اذا ما اتاه الركب من نحو ارضه تنشق يستنفي برائحة الركب
فلما سمع الرشد الصوت علم انها قد اشتاقت الى العراق واهلها
فيه ، فردها الى بغداد ، وكان الرشد يصطاف ببلدة الرقة من
الجزيرة الفراتية فاشتاق الى اخته عليه مرة فكتب الى خال ابيها
يزيد بن منصور الحميري في اخراجها اليه فذهب بها الى الرقة
فقال في طريقها :

اشرب وغن على صوت النواخير ما كنت اعرفها لولا ابن منصور
لولا الرجاء لمن املت رؤيته ما جزت بغداد في خوف وتغريز
وعملت فيها لحناً في مقام الثقيل الاول - كما كانوا يقولون في
ذلك الزمان .

وزارها اخوها الرشد ذات يوم فقال لها : بالله يا اختي غني .
فقال : وحياتك لا عملن فيك شعراً ولا صنعن فيه لحناً ، فقالت من وقتها :
تفديك اخذك قد حبوت بنعمة لسا نعد لها الزمان عديلاً .

الا الخلود وذاك قريبك سيدي لا زال قريبك والبقاء طويلا
 وحدث ربي في اجابة دعوتي فرأيت حمدي عند ذاك قليلا
 وصنعت فيه لحناً من وقتها في مقام خفيف الرمل ، فطرب
 الرشيد عليه . ولها اخبار حسان مع اخوتها ابراهيم وهرون
 ويعقوب بني المهدي ، وابني اخيها الامين والمأمون . وذكر لها
 مؤرخو الغناء العربي اثنين وسبعين صوتاً ، وذكروا ايضاً انها
 كانت تحب المراسلة بالشعر ، فهي ان لم تكن اول من ابتدع
 هذا الفن من المراسلة ، فهي من اوليات متبعاته . والمراسلة
 بالشعر فن من فنون الادب العربي ، يجب ان يدرس مستقلاً .
 وقالوا : انها كانت مملوكاً لاختها الرشيد اسمه طل -- على نحو
 ما يفعل السادة المتواضعون مع عبيدهم -- فمنعها الرشيد من ذلك
 خشية قالة السوء ، لان الناس يسيئون الظنون ويجعلون الاراجيف
 كالذي رآته العيون ، ولقد نحلها الرواة شعراً لغيرها ، لانها
 لحنته وغنت به ، ولان منهم من يريد تقبيح اخبارها ، والانتقام
 من اهلها ، قالوا : انها نظمت شعراً في الملوكة طل وغنت فيه
 وصحفت اسمه الى « الظل » وفي رواية انها قالت شعراً في
 مملوكها دشا وكننت عنه بزئب وريب ، الى غير ذلك مما هو سهل
 التلقيق صعب التحقيق . على ان العدو اذا اراد مقالاً في عدوه
 وجد له مجالاً ، وفي عليه واخيها ابراهيم قال ابو فراس الحمداني
 مثرباً على بني العباس ومغرباً ومجيباً لابن سكرة العباسي في
 افنخاره على بني علي :

منهم عليـة ام منكم وهل لكم شيخ المغنين ابراهيم اولهم ؟

إذا تلو آية غنى امامكم « قف بالديار التي لم يعفها قدم »
وهذا باب واسع لا ينتهي الداخل فيه الى غاية ولا يصل
الى نهاية ، فلا تقاس الاسر بالافراد ، ولا يصح الفخار بالاختيار ،
ولم يسلم قبيل من المثالب والمعائب ، الا ان القول الصحيح مع
مرور الزمان هو قول ابن حازم الباهلي :

ومن دعا الناس الى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
وكانت عليه تستر من الاجانب ، ولا تكلمهم الا من وراء
حجاب ، فقد ذكر اسحاق بن ابراهيم الموصلي الاديب المقتني انه عمل
في ايام هرون الرشيد لحناً في هذين البيتين :

سقياً لأرض اذا ما نت نهي بعد الهدوء بها قرع الزواقيس
كان سوسنها في كل شارقة على الميادين اذئاب الطواويس
وعزم على ان يباكر به الرشيد ، قال اسحاق : فلقيني في
طريقي خادم لعلي بن المهدي فقال : مولاتي تأمرك بدخول الدهليز
اي المجاز ، لتسمع من بعض جوارها غناء كانت اخذته عن ابيك
وشكت فيه الآن ، قال اسحاق : فدخلت مع الخادم الى حجرة
قد أفردت لي كأنها معدة لذلك ، فجلست فيها ، وقدم لي طعام
وشراب فقلت حاجتي منها ، ثم خرج الي خادم فقال : تقول
لك مولاتي : انا اعلم انك قد غدت الى امير المؤمنين بصوت قد
اعدته له يحدث ، فاسمعينه ولك مني جائزة تتعجلها ، فلعل
امير المؤمنين لا يأمر لك بشيء او لا يقع الصوت منه بحيث
توخيت ، فيذهب سعيك باطلاً ، قال اسحاق : فاندفعت فغنيتهما
الصوت ولم تزل تستعيده مراراً ، ثم اخرجت الي عشرين الف

درهم وعشرين ثوباً ، وقالت : هذه جائزتك ، ثم قالت : اسمع الصوت مني الآن فغنته غناءً ما دخل سمعي مثله .
وان الانسان العاقل ليستغرب أول وهلة ولع هذه السيدة العباسية بالغناء ، ويراها مخلاً بمقامها الهاشمي العباسي ، وحاطاً من منزلتها ، من حيث كونها بنت خليفة وأخت خليفة ، ولكن الأمر لم يكن كما نظن من السهولة وخرق الناموس ، لأن الحرية وحب الفن كانا قد بلغا في ذلكم العصر أعلى درجاتهما ولا يعرف حب الفن التمييز بين الرفيع والوضيع ، ولا يختلف فيه الغني والفقير ، ولا يتضاد فيه الملك والسوقة ، ولقد تزيد الاخباريون في أخبار عليّة حتى المشهورون منهم كالاديب الكبير أبي الفرج الاصفهاني ، فقد ذكر في كتابه الاغانى وهو مفخرة الأدب العربي ، في موضع منه أن عليّة غنت ابن أخيها الخليفة عبدالله المأمون في دار حرمه وأهله أحياناً أولها :

ما لي أرى الأبصار بي جافية لم تلتفت مني الى ناحيته ؟
وقال : ان الشعر والغناء لعليّة بنت المهدي ، ثم ذكر ذلك في موضع آخر من كتابه وقال : الشعر لأبي العتاهية وذكر ابن المعتز أنه لعليّة وذكر في موضع ثالث أن الشعر الذي غنت به أوله :

ليس خطب الهوى بخطب يسير ليس ينيك عنه مثل خبير
وروى أحد البرامكة وهم اعداء بني العباس ان جعفر يحيى البرمكي خضر مع الرشيد مجلساً من مجالسه وسمع عليّة تغني من وراء ستار وزعم ان جعفرأ قال : فطربت والله طرباً هممت معه ان انطح برأسي

الحائط ، ثم رأى الرشيد يرقص فرقص معه ، وهذا الراوي هو محمد بن الوزير جعفر البرمكي ، ولا اعتماد عليه في مثل هذه الاخبار لانه كان موتوراً ، وقد وتوه الرشيد بقتل ابيه جعفر البرمكي ، ولو كان جعفر استاذاً في الغناء لجاز لنا التصديق بالخبر ، اذ لا غضاضة في ان يسمع صوتها صاحب فن مثلها ليصلح غناها ، كما يسمع الاستاذ تلميذه ، ليعرف موطن الضعف فيه فيتلافى امره .

ولما توفي اخوها الرشيد وكان ذلك سنة ١٩٣ هـ جزعت جزءاً شديداً وتركت الغناء ، فلم يزل بها محمد الامين حتى عادت اليه كالجبرة المكروه وغنته بأبيات نظمتها في مدحه وهي آخر شعر لها قالت فيها :

أطلت عاذلتني لومي وتفضيدي وأنت جاهلة شوقي وتسهيدي
لا تشرب الراح بين المسمعات وزر ظيماً غريراً نقي الحدا والجدي
قد رنحته شمول فهو منجدل يحكي بوجنته ماء العناقيد
قام الأمين فأغنى الناس كلهم فما فقير على حال بموجود
وقد جاء في اخبارها ما يدل على خفة روحها ولطف فكاهتها وجمال نكاتها ، فقد ذكر اخوها ورسيلها ومطارحها في الغناء ابراهيم بن المهدي انها اخجلته ذات يوم إنجالة فادرة ، وذلك انها كانت مريضة فدخل عليها عانداً لها فقال لها : كيف انت يا اخوتي جعلت فداءك وكيف حالك وجسمك ؟ فقالت له : بخير والحمد لله ، وكانت الى جانبها جارية من جوارها واقفة تطرد عنها الذباب ، فاستحلاها ابراهيم وظل ينظر اليها وطال

جلوسه عند اخته ، ثم احسن ان اخته رآته ينظر الى الحارية ،
 فاستجيبا واقبل على اخته فقال مرة ثانية : وكيف انت يا اخي
 جعلت فداءك وكيف حالك وجسمك ؟ فرفعت عليه رأسها الى
 امرأة حاضنة لما كانت حاضرة وقالت : أليس هذا قد مضى مرة
 وأجبنا عنه ؟ فقام ابراهيم تحيلاً وانصرف ، وكيف لا يتحجل من
 مثل هذا الكلام الدال على البواعة في التنكيت والتبكيت ؟
 أما شعر عليه وقد ذكرنا منه قبل هذا ، فكان من الشعر الجيد الصادق
 ولو قالت عن نفسها : ولا اقول في شعري الا عيشاً ، ففي هذا العيش
 الذي لم يدخله خوف ولا رجاء ولا استعطاء ولا تعلق ولا فخر ، أحسن
 معاني القريض وأخفى اهواء النفس الشاعرة وأصح نزاعاتها ، ولقد روى
 شعرها جماعة من كبار ادباء العرب قال : ابو علي اسماعيل بن القاسم
 القالي البغدادي : انشدنا ابو بكر بن الأنباري قال انشدنا ابراهيم بن
 عبد الله لعلبة بنت المهدي :

تجيب فانت الحب داعية الحب
 وكم من بعيد وهو مستوجب القرب
 تفكر فان حدثت ان احب هوى
 نجى سالماً فأرج النجاة من الحب
 فأحسن ايام الهوى يومك الذي
 تروّع بالتحريش منه وبالعتب
 إذ لم يكن في الحب سخط ولا رضى
 فأين حلالات الرسائل والكتب ؟
 وهذا شعر بحبة مجرّبة مجرّبة ، ما نجت من بأس الحب فنصحت للناس

بان لا يكابدوه ، ولا يقاربوا أسبابه ان لم يتحملوا عذابه ، وعلى
هذا المعنى جرى عمر بن الفارض الصوفي في قوله :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل
فما اختاره مضى به وله عقل
وعش خالياً فالحب راحتته عنا
واوله سقم وآخره قتل

ومن شعرها المعنى به :

فام عذالي ولم أنم واشتفى الواشون من سقمي
واذا ما قلت بي ألم شك من اهواه في ألمي
ومنه قولها :

يا ربة المنزل بالبوك وربة السلطان والملك
تخرجي بالله من قتلنا لنا من الديلم والتوك
ومنه قولها :

يا واحد الحب مالي منك اذ كلفت
نفسي بحبك الا الهم والحزن
لم ينسنيك سرور لا ولا حزن
وكيف لا ، كيف ينسى وجهك الحسن
ولا خلا منك قلبي ولا جسدي
كلي بكلك مشغول ومرتمن
نور تولد من شمس ومن قمر
حتى تكامل منه الروح والبدن

وقوها :

بني الحب على الجور فلو أنصف العشوق فيه لسيح
ليس يستحسن في حكم الهوى عاشق يحسن تأليف الحبيح
لا تعيبن من محب ذلة ذلة العاشق مفتاح الفرج
وقليل الحب صرفاً خالصاً لك خير من كثير قد مزج
وقالت مرة للرشيده وقد طلب أختها ولم يطلبها في أمر من
أموره :

مالي نسيت وقد نودي بأصحابي
وكنت والذكر عندي رائح غادي ؟
أنا التي لا تطيق الدهر فرقتكم
فرقني يا أخي من طول ابعداد
وغنت فيه لحناً من الثقيل الأول - كما كانوا يقولون -
وبعثت إلى الرشيده من غناه بحضرته فرق لها وأحضرها ، وهذا
يدل على تقاطع وتهاجر حدث بينها وبين أخيها .
وكان لها وكيل يقال له سباع خان في مكانه واحتجج مالا
فوقفت على خيانتة فضربته وحبسته ، وكان يظهر العفة ويتصدق
رثاء الناس ، ثم اجتمع جيرانه اليها وكتبوا رقعة يتشفعون له اليها
ويذكرون حسن سيرته وكثرة صدقته ، فوقعت فيها هذه الأبيات :
ألا أيهذا الراكب العيس بلغن سباعاً وقل إن ضم ركبكم السفر
أتسلبني مالي وانت جاء سائل رقت له إن حظه فحوك الفقر ؟
كشافية المرضى بعائدة الزنا تؤمل أجراً حيث ليس لها أجر
وقالت في لبابة وهي ابنة أخيها علي بن المهدي :

وحدثني عن مجلس كنت زينه رسول أمين والنساء شهود
فقلت له كر الحديث الذي مضى وذكرك من ذاك الحديث أريد
وقد رأت غلية خمسة خلفاء من اهلها ، هم أبوها محمد المهدي
وأخوها موسى الهادي وهارون الرشيد ، وابننا أخوها محمد الأمين
وعبد الله المأمون ، وتوفيت ببغداد في خلافة المأمون سنة عشر
ومائتين للهجرة لها خمسون سنة ، وكان سبب وفاتها أن المأمون
ضمها اليه وجعل يقبل رأسها ، كما يفعل أبناء الأخ بعماتهم ، وكان
وجهها مغطى فشرقت من ذلك وسعلت ، ثم أصابتها الحمى بعقب
هذا أياماً قليلة وماتت ، وانطقات بانطفاء حياتها شعلة فنية أدبية ،
لا يدرك بهاءها إلا أرباب الفنون الرفيعة وأولو الأذواق الفنية ،
ولكنها تركت من الآثار والأخبار ما جعلها في مراتب الفنانين
العالميين ، من جهة ، وصيرها كبرى الفتيات العربيات من جهة
أخرى ، فلقد خلت كتب الفنون من ذكر العباسيات إلا ذكرها ،
وفي ذلكم فضل راهن لا يستطيع ججده الجاحدون واجدوثة
حجة لا يقدر على نسيانها الذاكرون لأرباب الفنون .

العباسة بنت المهدي

هي العباسية بنت الخليفة المهدي ، أخت هرون الرشيد ، وسيرتها
عقدة من عقد التاريخ الإسلامي ، ومشكلة من مشكلات الأخبار ،
وعجيبة من عجائب السير ، فقد جعل القدر اسمها دريئة لأسماء
العباسيات .

نشأت العباسية في بيت الخلافة ، وكانت أمها جارية من
الجواري ، وكان لها من الأخوات البانوقة وسليمة وعليه ، ومن
المؤرخين من سمى عليه بالعالية ، خطب العباسية إلى أبيها الخليفة
المهدي ، عظيم من عظماء بني العباس ، هو محمد بن سليمان بن علي
ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، والي البصرة يومئذ ،
فزوجه إياها ، وحملت إليه إلى البصرة ، وإذا كانت ولاية المهدي
لخلافة سنة ١٥٨ هـ ، علم أن انتقال العباسية إلى البصرة كان بعد
هذه السنة ، أما زوجها فقد كان ولاد أبو جعفر المنصور البصرة ،
ولما ثار فيها إبراهيم بن عبد الله العاوي الحسني وكان ذلك سنة
١٤٥ ، خرج عنها محمد بن سليمان العباسي هو وأخوه جعفر بن
سليمان ، فولاد المنصور الكوفة ، ثم قلده المهدي البصرة سنة ١٥٩
وزوجه بابنته العباسية - كما ذكرنا آنفاً ، وأخاف إليه الأهواز
والبحرين وعمان والسند واليامة ، ولبت في هذه الولاية بعد

خلافة المهدي أيام خلافة الهادي ، وأدرك خلافة هرون الرشيد ،
وكان يتولى أمور الحج أحياناً إلى ولايته الأصلية ، وهو الذي
تولى حرب الحسين بن علي بن الحسن العلوي الحسيني بفخ على فرسخ
من مكة ، فقتله وفض جمعه سنة ١٦٩ في خلافة موسى الهادي
ابن المهدي .

وكان لمحمد بن سليمان هذا بالبصرة خمسون ألف مولى من
خول وغيرهم ، وتوفي بالبصرة سنة ١٧٣ في خلافة هرون الرشيد ،
فاستولى هرون على ثروته العظيمة ومنها ستون مليون درهم ،
وعلى ضياعه في البصرة وغيرها ، وكان لزوجته العباسية بالبصرة
قطيعة أي مقاطعة جعلها لها أبوها المهدي . ذكرها البلاذري في
فتوح البلدان ، ثم زوج هرون الرشيد أخته العباسية إبراهيم بن
صالح بن علي العباسي ، وهو ابن عم زوجها الأول وذو القرابة
القريبة من الرشيد ، وعلى كون العباسية قد تزوجت زوجين من
بني العباس ودخلت في عصمتها الواحد بعد الآخر ، أذيعت عليها
في التواريخ قصة باطلة باردة هي قصة اتصالها بجعفر بن يحيى الفارسي
البوسكي ، بعد عقد شرعي مزعوم عقده لها أخوها هارون الرشيد ،
على شرط عدم الاجتماع ، ولكن الاجتماع حصل من دون علم
الرشيد وعلى غير اختيار من الوزير ، وهذه القصة الباردة رواها
أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه عن أحمد بن زهير بن
حرب النسائي ، عن زهير بن حرب ، ونقلها بعده كثير من المؤرخين ،
ولكن المرجع واحد أو اثنان .

وصورة القصة أن هارون الرشيد كان لا يصبر عن جعفر

البرمكي وعن اخته العباسية وكان يحضرهما إذا جلس للشراب ،
 فقال لجعفر : أزوجك اختي العباسية ليحل لك النظر اليها إذا
 أحضرتها جلوسي . وأمره أن لا يمسي . فزوجها منه على ذلك
 الشرط فكانت يحضرهما مجلسه إذا عاقر الحمر ثم يقوم عن مجلسه
 ويخليهما فيسكران من الشراب وهما شابان ، حتى آل الأمر الى
 ان حملت العباسية من جعفر البرمكي فولدت غلاماً ، فخافت على
 نفسها من اخيها الرشيد ، فبعثت بالمولود الى مكة ولم يزل الأمر
 مستوراً عن هرون ، حتى وقع خلف بين العباسية واحدى
 جواريها ، فأعلمت بأمرها وأمر الصبي هرون الرشيد وأخبرته بمكانه ،
 فلما حج هرون حجة سنة ١٨٦ هـ أرسل الى موضع الصبي في مكة
 من أتاه به ، وسأل المتولية لتربيته فأعلمته حقيقة الأمر وصح
 عنده قول الجارية ، فأراد قتل الصبي ولكن تركه خوفاً من
 الأثم ، وفي عودته من مكة قتل جعفر البرمكي ونكب البرامكة
 وأودعهم السجون الا واحداً منهم ، واستصفى أموالهم وضياعهم .
 واثرا الاختلاق والتوليد ظاهر على هذه الحكاية ، لأنها وضعت
 للانتقام من هرون الرشيد ، بما فعل بالبرامكة من قتل جعفر
 وحبس الآخرين وإزالة سلطانهم ، والا فقد ذكرنا ان العباسية
 تزوجت زوجين وكانت تسكن البصرة في زواجها الاول ، ثم انها
 هاشمية عباسية ولم يكن هذا الفارسي كفواً لها ولا بعض كفء ،
 ولا عرف شيء مثل هذا في التاريخ ، وكيف يصح وقوع هذا
 من الرشيد وهو الذي يقول ، سألت ابي قلت له : من اكفاؤنا ؟
 فقال : اكفاؤنا اعداؤنا . يعني بني امية ، فلم يكن يجوز للهاشمية

ان تتزوج الا هاشمياً او اموياً ، وقد تصرف المؤرخون
 والاخباريون بهذه القصة وزينوها وحسنوها وزوروا لها حواشي
 وذبولاً ، ومنهم من فطن الى ان العباسية كانت متزوجة فقال انها
 « فاختة بنت المهدي » ، كما جاء في كتاب الامامة والسياسة ،
 ومنهم من قال : انها ميمونة ، كما في اعلام الناس ، وهو
 اضعف الكتب اخباراً ، وفريق جعل للعباسية من جعفر حبيباً
 واحداً ، وفريق جعل لها ثلاثة صبية ، مات أحدهم صغيراً ، ومن
 اعجب ما نشأ عن هذه القصة الباطلة التي أريد بها الانتصار
 للبرامكة ، وكونهم قتلوا ظلماً ونكبوا عدواناً ، ان آل مرا
 من قبيلة طي ، كانوا في القرن السابع للهجرة يدعون انهم من
 ذرية جعفر البرمكي من نسل ابن جعفر الذي ولدته العباسية ،
 وقال النسابة بدر الدين ابو المحاسن يوسف الخداني ، بعد ذكره ان
 ربيعة الطائين كانوا في زمانه ملوك البر ما بين الشام والعراق
 والحجاز قال : ويقال ربيعة الآن انه من ولد جعفر بن يحيى بن
 خالد البرمكي ، وهذا ليس بصحيح . ثم قال : « وزعموا انهم من
 ولد جعفر من اخت الرشيد ، التي عقد له عليها - كما قالوا -
 لتخرج عليه ، فحبلت منه بغلام ، كان ربيعة طيء من بنيه ،
 وهذا الخبر ليس بصحيح ، وان كان صحيحاً فقد دفنت المرأة
 وولدها - كما قيل في قام الحسكية - ولم يعلم لها أثره وذكر
 ابن فضل الله العمري هذه الدعوى وعابها على آل مرا لتركهم
 نسبهم العربي .

على ان أهل الانساب ذكروا ان هؤلاء الطائين الذين ادعوا

انهم من نسل جعفر البرمكي ، جاءت منهم جماعة الى الخلعة في
اواخر عهد الایلخانين بالعراق اي اوائل القرن الثامن للهجرة ،
مع أمير طيء سليمان بن عيسى من آل مهنا ، وقد جعله المغول
اميراً على الخلعة ، فقالوا « نحن من بني جعفر بن ابي طالب الطيار
وعدتنا نحو من اربعة آلاف فارس نحفظ انسابنا وننزوج في قبيلة
طيء ، ولكن اكثرهم كانوا يحلون انسابهم ويكتفون بانهم من
نسل جعفر الطيار .

وأول من لبه على كذب قصة العباسة القاضي عبد الرحمن بن
خلدون ، فقد عقد في مقدمة تاريخه العظيمة حق العظيمة ، فضلاً
في « فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه » ، والاماع لما يعرض
للمؤرخين من المغالط والأوهام ، وذكر شيء من أسانيها « قال
فيه : ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب
نكبة الرشيد للبرامكة ، من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى
البرمكي ، وانه لكلفه بمكانها من معاقرة اياهما اجر ، اذن لها في
عقد النكاح دون الخلوة حرصاً على اجتماعهما في مجلسه ، وان
العباسة تحملت على جعفر في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه ،
الى ان قال : « فحملت ووشى بذلك للرشيد فاستغضب ، وهيبات
من منصب العباسة في دينها وابويها وجلائها ... » حتى قال :
« قريبة عهد ببداوة العروبة وسداجة الديار ، بعيدة عن عوائد
الترف ومراتب الفواحش ، فإن يطلب الصون والعفاف اذا ذهب
عنها ، او اين توجد الطهارة والزكاء اذا فقد من بيتها ، وكيف
تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها بثولي من موالى العجم ؟

ثم قال : « وكيف يسوغ من الرشيد ان يصهر الى موالي الاعاجم ،
على بعد همته وعظم آباته » الى آخر قوله في الاستبعاد والاستغراب .
واستبعاد ابن خلدون لحادث العباسية لا يكفي في الدلالة على
نفيه ودفعه ، وكان عليه ان يذكر من سيرتها كرواجها مرتين
وسكنائها البصرة مدة ما يؤيد دليبه العقلي ليقترن دليل النقل
ودليل العقل ، ثم ان اشارته الى مراتع الفواحش وضياح الصون
والعفاف ، خارجة عما هو بسيله ، ومباينة لموضوعه ، فان
المؤرخين لم يذكروا ان العباسية زنت ولا تركت الصون والعفة ،
وانماذكروا ان عقدها كان مشروطاً بعدم الاجتماع ، وهو امر
لا يثبت في الشرع ، بل تقتضيه الآداب ، وخصوصاً في مذهب
الرشيد ، فقد كان من مذهبه ان العقد اذا دخله شرط فهو صحيح
والشرط لغو ، ولذلك لم يطعن المؤرخون على جعفر من حيث
المخالفة للشرع ، ولم يجدوا سبيلاً عليه ، فان خلدون لم يحسن
الدفاع ووقع فيما عابه على المؤرخين .

ومن الحقائق التاريخية ان المهدي بن ابي جعفر المنصور كان
من الخلفاء الذين حرروا المرأة من الحصر والقصر ، وتلكم الحرية
هي التي جعلت عليه بنت المهدي على الحال المعروفة ، وسنتحدث
فيهم اخبارها في حديث قابل ، وقد ذكر المؤرخون عن احد
المعاصرين للمهدي العباسي ، قال : رأيت المهدي وقد دخل البصرة
من قبل سكة قريش ، فرأيت يسير وابنته البانوقة بين يديه ،
بينه وبين صاحب الشرطة ، عليها قباء اسود متقلدة سيفاً عليها
منطقة رشاشية في هيئة الغلمان ، ورأيت في صدرها شيئاً من

ثديها وقد رفعها قباءها لنهودها ، وكانت سحراء ، حسنة القد ،
حلوة ، فلما ماتت وذلك ببغداد اظهر عليها المهدي جزءاً لم
يسمع مثله ، وجلس للناس يعزونه وامر ان لا يحجب عنه احد ،
فأكثر الناس في التعازي .

فهذه صفة الحرية التي كانت عليها البانوقة بنت المهدي أخت
عليه ، فأين بداوة العروبة من زي البانوقة تلك العروبة التي
زعم وجودها ابن خلدون للعباسة ، وهي أخت البانوقة الفارسية ،
وهما اختا عليه الادبية الشاعرة المجاهرة ؟

وانا نستدل نحن على بطلان اجتماع جعفر بن يحيى البرمكي
مع كل امرأة من حرم الرشيد ، بما ذكره المؤرخون من ان
الرشيد قال لجعفر البرمكي يوم الجمعة آخر المحرم من سنة ١٨٧
« لولا اني عازم على الجلوس الليلة مع النساء لم افارقك ، فأقم
انت في منزلك واشرب واطرب » ، ومن ذكر ذلك الطبري في
تاريخه ، فلو كان صحيحاً ما اختلق المختلقون لم يقل الرشيد لجعفر
ذلك القول ، ولجرت العادة على ما زعموه وولدوه .

فتعليل فتك هرون الرشيد بالبرامكة ، يجب ان يبحث عنه
في غير قصة العباسة الباطلة ، كزندقة البرامكة وتحريضهم هرون
الرشيد على العلويين ابناء عمه وسعيهم في قتل عظمائهم كالامام
موسى بن جعفر ، وعبد الله بن الحسن الافطس المعروف بقتيل البرامكة
وهو الذي اهدى جعفر البرمكي رأسه في طبق الى هرون الرشيد ، في
يوم النيروز جاعلاً له من الهدايا التي تهدي في الاعياد .

السيدة زبيدة زوجة

هرون الرشيد وأم الامين

هي زبيدة بنت جعفر الأكبر بن المنصور العباسية ، زوجة هرون الرشيد وأم محمد الامين الخليفة العباسي ، وهذه السيدة العظيمة قد دخلت أخبارها في الحرفات ، واصبحت هي علماً لكل سيدة كبيرة عباسية من سيدات البلاط ، كما صار زوجها هرون الرشيد علماً لكل خليفة عباسي عظيم ، وعت وزيره جعفر بن يحيى البرمكي علماً لكل وزير خطير من وزراء الدولة العباسية ، فلا غرو أن تدور الافاصيص حول هؤلاء الثلاثة ، ويكونوا أمثلة لغيرهم ، يعني ذكرهم عن ذكرهم ويعزى اليهم مع فضلهم فضل غيرهم ، ومن هذا ينشأ بعض الخلط في التاريخ والوهم في أحكامه .

إن جعفر الأكبر بن ابي جعفر المنصور تزوج سليل أخت الخيزران زوجة أخيه المهدي العباسي ، فولدت له زبيدة واسمها « سكينه » وكنيتها أم جعفر ، وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه والاصفهاني في الاغانى ان اسمها « أمة العزيز » ، وان جدها أبا جعفر المنصور كان يرقصها وهي صغيرة فيقول لها : « انت زبيدة وانت زبيدة » فغلب هذا اللقب على اسمها الأصلي ، وانما لقبها أبو جعفر المنصور بذلك لبخاستها ونضارتها وحسن بدنها ، والمعروف في التاريخ أن « أمة العزيز » هي جارية الخليفة موسى الهادي أخي

هارون الرشيد ، على انها اشتهرت بلقبها فلم تعرف إلا بزبيدة .
والد زبيدة هو جعفر الأكبر بن أبي جعفر المنصور - كما ذكرنا -
وفي سنة ١٤٥ ولادة أبوه مدينة الموصل وسيّر معه حرب
ابن عبدالله أحد قواد بني العباس الصكبار ، فبني بأسفل الموصل
قصرًا وسكنه وفيه ولدت زبيدة ، قال ابن الأثير عز الدين :
« فهو اليوم ، [أي في أول القرن السابع للهجرة] يعرف بقصر
حرب ، وعنده - يومنا هذا - قرية كانت ملكاً لنا ، فبنينا
فيها رباطاً للصوفية وقفنا القرية عليه ، وقد جمعت كثيراً من
هذا الكتاب في هذه القرية في دار لنا بها ، وهي من أنزه
المواضع وأحسنها ، وأثر القصر باقٍ بها إلى الآن سيجات من
لا يزول ولا تغيره الدهور » هذا كلام ابن الأثير .

أما أبو زبيدة جعفر الأكبر فقد مات في حياة أبيه المنصور
ببغداد سنة « ١٥٠ » ودفن في مقابر قریش المعروفة اليوم
بالكاظمية ، وهو أول من دفن فيها من القرشيين .

وعلى هذا تكون زبيدة قد ولدت بعد سنة ١٤٥ بقليل جداً ،
ونشأت في دولة جدها المنصور ، ثم تزوجها ابن عمها هرون
الرشيد وأعرس بها ببغداد سنة ١٦٥ هـ في خلافة أبيه المهدي ،
وكان ذلك في دار محمد بن سليمان العباسي ، وأحبها الرشيد حباً
جماً حتى إن أخاه الخليفة الهادي لما عزم على خلعه من ولاية
العهد سنة ١٧٠ ، والمبايعة لابنه جعفر بن الهادي ، طاب الرشيد
بذلك نفساً ، فقال له يحيى بن خالد البرمكي : لا تفعل . فقال
الرشيد : أليس أخي يتوكل لي الخي والمريء فهما يسعاني وأعيش

مع ابنة عمي زبيدة . فهو قد فضل العيش معها على الخلافة ورأى فيه غنى عن هذه المرتبة العظيمة والاهمة الجسيمة .

ودار الزمان دورته ومات الخليفة الهادي فبويع بالخلافة هرون الرشيد سنة ١٧٠ ، وانقادت الدنيا له ولزبيدة ونقلت أموالها اليهما ، وفي سنة ١٧٦ أي بعد ست سنوات من استخلاف الرشيد ، حجت زبيدة الى بيت الله الحرام مع احد اخوتها ، واخوتها هم جعفر وعيسى وعبدالله وصالح ، وكان لها أخت واحدة اسمها لبابة . تزوجها موسى الهادي ، وانفقت في حجها في ستين يوماً اربعة وخمسين مليون درهم ، وقد أثرت زبيدة في مكة المكرمة آثاراً جميلة ، وما أثر خالدة فانها أجرت الماء الى مكة عشرة أميال ، بحفر الجبال ونحت الصخور حتى وصل الماء الى الحرم وأسقي اهل مكة بعد أن كانت الراوية وهي كالفربة تباع عندهم بدينار ، وعملت عقبة البستان ، وكانت لما أرادت عملها قال لها وكيلها : تلزمك لذلك نفقة كثيرة ، فقالت له : عملها ولو كانت ضربة فأس بدينار . وكان لها بجوار الكعبة دار تعرف بدار زبيدة ، ولها آثار جميلة ، عملتها في المدينة .

ولها أيضاً آثار جسيمة في طريق الحج من جهة العراق ، من مصانع وبرك وغيرها والمصانع جمع مصنع ومصنعة وهي سد يجمع الماء كمصنعة الهندية اي سدة الهندية ، وقد ذكر ابن جبير الرحالة بعض هذه الآثار ، قال « وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد الى مكة ، من آثار زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوج هرون الرشيد وابنة عمه ، انتسبت لذلك مدة

حياتها فأبقت في هذه الطريق مرافق ومنافع ، تعمّ وقد الله تعالى ، كل سنة من لدن وفاتها الى الآن ، ولولا آثارها الكريمة في ذلك ما سلكت هذه الطريق والله كفيل بمجازاتها والرضى عنها .

ولبت زبيدة مدة مع الرشيد لا تعلق منه أي لا تحيل ، فشاور بعض مجالسيه من الحكماء واستشاره ، فنصحه بان يغيرها ، وضرب له مثلاً في الغيرة بسارة زوجة ابراهيم الخليل ، فان سارة لم تكن تحيل من ابراهيم فلما وهبت له هاجر وحبلت منه باسما عيل ، غارت سارة فحبلت منه باسحق ، فاشترى الرشيد جارية اسمها مراحيل ، فولدت له عبد الله المأمون ، فقارت زبيدة منها فولدت له محمداً الأمين بعد ستة أشهر من ولادة المأمون ، وهي إحدى الخلفين اللتين ولدتا لخليفين ، الأولى منها هي فاطمة بنت أسد ام الامام علي بن ابي طالب - ع - والثانية زبيدة .

وذكر احد المؤرخين انها كان لها مائة جارية يحفظن القرآن الكريم ، ولكل واحدة منهن وزد عشر القرآن ، وكان يسمع في قصرها صوت كدوي النحل من قراءة القرآن ، وكانت معروفة بالخير والافضال على اهل العلم والبر للفقراء والمساكين وكان لها معروف كثير .

ومن العجيب ان التاريخ احتوى على اخبار جوار مفضيات كن لزبيدة ، ومنهن الجارية المسماة « قلم » ، ويحكى عن قلم هذه انها غنت بحضرة المأمون صوتاً عجيباً اي مقاماً فسمعه علي بن هشام ، فاحتال لتعليم جواريه هذا الصوت بان يذل مائة الف دينار ،

ولم تعلم زبيدة بهذه السرقة الفنية ولو علمت لاغتازلت اشد الغيظ ،
فانها كانت ضئيلة بمثل هذه الاصوات الغنائية ، وسمعت مرة مع
زوجها الرشيد غناء ابن جامع المغني ، فأمرت له بمائة الف درهم
لكل بيت غناه ، واشترت غلاماً لعبدالله بن موسى الهادي ضرباً
على العود مجيداً بثلاثمائة الف درهم ، ولها أخبار وردت في
كتاب « الأغاني لأبي الفرج الإصفياني » تدل على لهوها وهو
زوجها هرون الرشيد ، بما كان له أثر قبيح في الدولة الإسلامية
كشرب الخمر باسم النبيذ والاقبال على الملاهي التي حرمتها
الشريعة الإسلامية ، ولو بقي هرون الرشيد أكثر مما بقيه في
الخلافه لانحطت الدولة العباسية أقبح الانحطاط ، فانه كان
ضعيف التدبير .

وفي سنة ١٩٣ هـ توفي زوج زبيدة أعني هرون الرشيد ،
وبرع بالخلافة ابنه محمد الأمين فافتتح خلافته بالعدل ، وخلع أخاه
المأمون من ولاية العهد وكان لأمه زبيدة يد في هذه الحركة
المشؤومة التي جعلت لاعداء الدولة العباسية طريقاً يسلكونه ، حتى
لقد دفعت الى قائد جيش ابنها المبعوث حرب المأمون وهو
علي بن عيسى بن ماهان - قيداً من فضة وقالت له « قبيده
بهذا القيد » بعد ان قالت له : « يا علي اعرف لعبدالله المأمون
حق ولادته ولا تقتصره افسار العبيد اذا ظفرت به ، ولا تعنف
عليه في السير ، وان شئت فاحتمله » وكانت أجدر بان تمنعه
من العذر وتكفه عن احداث حدث عظيم في الدولة العباسية ،
أخرب البلاد وأزهق نفوس العباد وأتى على نفس ابنها معهم ،

قيل انها دخلت يوماً على الرشيد فقالت له : ما انصفت ابنك
محمدًا حيث وليته العراق واعريته من العدد والقواد ، وصيرت
ذلك الى عبدالله دونه ، فقال لها : وما انت وتمييز الاعمال
واختيار الرجال ، اني وليت ابنك السلم وعبدالله الحرب ، وصاحب
الحرب أحوج الى الرجال من المسالم ، ومع هذا انا أتخوف
ابنك على عبدالله ولا أتخوف عبدالله على ابنك إن بويع .

ولما حلف الامين بالكعبة المعظمة لاييه الرشيد بالوفاء لاختيه
لأأمون ، واراد الخروج رده جعفر بن يحيى البرمكي وقال له ،
« فان غدرت بأخيك فذلك الله » قالها ثلاث مرات ، فاضطغت
زبيدة ذلك على جعفر البرمكي وكانت احد من حرص الرشيد على
اهلاكه ، وكأنها كانت تضرر الغدر للأمون منذ ولي العهد .

وقتل الامين سنة ١٩٨ هـ وامة زبيدة في الحياة ، ولا شك
في انها قاست بموته قتيلاً أروع المصائب ، وكابدت في حروبه
اشد الاهوال والاحداث ، قيل لما احاطت جيوش الأمون ببغداد
وحاصرت فيها الأمين ، دخلت عليه امه زبيدة باكية فقال لها ،
« مه انه ليس بجزع النساء وهلمين عقدت التيجان ، والخلافة
سياسة لا تسعها صدور المراضع ، وراءك وراءك » .

وفي هذا ما يدل على قوة قلبه ونفسه وصلابة عزمه الا أن
الشجاعة بغير العقل تكون وبالأونكالا على صاحبها ، وكانت
لزبيدة شعر جيد منه قولها في فقدان ابنها الامين :

لما رأيت المنابا قد قصدن له

أصبن منه سواد القلب والراسا

فبت منكماً أرعى النجوم له
 اخل سنته في الليل قرطاسا
 رزئته حين باهيت الرجال به
 وقد بنيت به الدهر آساسا
 فليس من مات مردوداً لنا ابداً
 حتى يرد علينا قبله ناسا
 وقالت تعزیه مرة :

نقي فداؤك لا يذهب بك اللب
 ففي بقائك بما قد مضى خلف
 عوضت موسى فمات كل مرزئة
 ما بعد موسى على مفقودة اسف

ولها أخبار مع المأمون لا تتمدى العتاب والترضي والتأسي ،
 وفي خلافته توفيت وذلك في جمادى الاولى من سنة ٢١٦ هـ ،
 ودفنت في مقابر قریش أي السكاظية الحالية ، وكان قبرها
 قريباً من روضة الامام موسى بن جعفر ، ولما احترقت هذه المقبرة
 سنة ٤٤٣ هـ ، في خلافة القائم بأمر الله العباسي ، احترق فيها
 قبر زبيدة وقبر ابنها محمد الامين وقبر جعفر بن ابي جعفر المنصور
 وقبور بني بويه وغيرهم من الوزراء والرؤساء ، ذكر ذلك ابن الأثير
 عز الدين في تاريخه ، ولا ريب في أن القبور التي احترقت جددت
 بعد ذلك ، ثم عفا قبر زبيدة مع القبور العافية الدارسة فلا
 اثر له اليوم .

واما القبة المعروفة اليوم بقبة الست زبيدة فهي في الحقيقة
قبة زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، ولم نجد
فيما وقع الينا من الأخبار ان زبيدة من الزبيدات دفنت قرب
الشيخ معروف الكرخي ، فان يقع الينا يوماً من الايام فانها
تعد مدفونة تحت قبة زمرد خاتون اعني القبة القائمة حتى اليوم
كما دفنت تحتها من قبل السيدة بنفسه زوجة المستضيء بأمر الله ،
والملك المعظم علي بن الناصر لدين الله ، وعائشة خاتم زوجة
والي بغداد حسن باشا سنة ١٩٣١ اي قبل مائتين واربع وثلاثين
سنة قمرية ، وفي هذا التاريخ حرفوا اسم « زمرد » الى زبيدة
لان الجهل يبعث على التخليط والضلal .

السيدة بوران زوجة المأمون

السيدة بوران بنت الحسن بن سهل بن عبدالله السرخسي ، زوجة أبي عبدالله المأمون الخليفة العباسي ، وابنة اخي ذي الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون ، وقيل اسمها خديجة وبوران لقبها ولكنها اشتهرت ببوران ، فانها سميت باسم ملكة القرس « بوران دخت بنت أبرويز » ، وفي عهد هذه الملكة دخل خالد بن الوليد العراق ، وفتح حصن عين التمر المعروف اليوم بالأخضر غربي كربلا .

ولدت بوران بنت الحسن بن سهل ليلة الاثنين لليلتين خلتا من صفر من سنة ١٩٢ في إحدى مدن خراسان ، وكان أهلها من المجوس ، واسلم عمها الفضل بن سهل سنة « ١٩٠ » على يد المأمون ، فهي قد رأت الدنيا بعد سنتين من إسلام أهلها ، ونشئت تنشئة بنات العظماء ، فان أمر المأمون ومملكته وسياستها كانت موكولة إلى عمها وأبيها ، ولما قتل عمها سنة « ٢٠٢ » أسند المأمون وزارته إلى أبيها الحسن بن سهل ، وفي تلك السنة عقد المأمون زواجه بها وعمرها عشر سنوات ، تألفا لقلب والدها ونسكينا لنفسه ، لانه - أعني المأمون - أنهم يقتل وزيره الفضل بن سهل عم بوران ، وانفقت كثرة الاحداث والحوادث والحروب وصغر سنها في تأخير دخول المأمون بها ، وبعد أن عاد هذا

الخليفة إلى بغداد دار ملكه ومستقر خلافته ، وسبقه الحسن بن سهل إلى العراق لتوطيد ملكه له ، تهيأ له الدخول بها ، وإقامة عرس من أفخم الاعراس في تاريخ البشر .

وكان ذلك سنة « ٢١٠ » أيام كان أبوها الحسن بن سهل نازلاً ببلدة تسمى « غم الصالح » ، والصالح نهر كان فوق واسط وكانت هذه البلدة على فوهته وفمه ، واحتفل أبوها بزوجها احتفالاً نادراً في التاريخ ، وعمل من الولائم والافراح ما قل عمل مثله في عصر من الاعصار ، وانحدر المأمون من بغداد إلى غم الصالح لثاني ليل خاؤون في شهر رمضان صائماً ، فوجد وزيره قد أعد له من الرياش والآلات والاثاث والزينة والهدايا ما يعد من قبيل الخرافات ، لعظمه وفخامته ونفاسته وطرافته وكثرته ، فقد فرش للمأمون حصيراً منسوجاً بالذهب ، ولما وقف عليه نثرت عليه لآلئ كثيرة ، فلما رأى تساقط اللآلئ المختلفة على ذلك الحصير قال ، قاتل الله أبا نواس كأنه شاهد هذه الحالة حين قال ، في صفة الجمر والحباب :

كان صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب وكانت جدتها أم الفضل والحسن ابني سهل هي التي نثرت تلك اللآلئ من صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع اللآلئ المنثورة وسألها عن عددها ، فقالت : ألف درة ، فأمر بعدتها ، فنقصت عشر حبات ، فقال : من أخذها منكم فليردها ، فقالوا : فلان ، فأمره بردها ، فقال اللاقط لها : إنما نثر اللؤلؤ لتأخذنه يا أمير المؤمنين ، فقال له المأمون : ردها فاني أخلفها عليك ،

فردوها ، وجمع المأمون ذلك الدر في صينية الذهب كما كانت ،
وأمر بان يوضع في حجر بوران ، وقال لها : هذه نخلتك وسلي
حوائجك أقضها ، فامسكت ثم سأله حوائجها ، وأوقدت لمبة
عرسها شعة عنبر وزنها أربعون مثاقيل في اناء من ذهب ، ونثر أبوها
على الهاشميين والقواد والكتاب والاعيان بنادق مسك ، في كل بندقة
اسم ضيعة أي مقاطعة أو اسم جارية أو اسم دابة بصفاتها أو
غير ذلك ، فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل اللاقط لها ،
فتحتها فقرأ اسم ما في الرقعة التي في البندقة ، فاذا علم مضمونها
ذهب الى وكيل مرصد لذلك ، فيدفعها اليه ويتسلم ما كتب
اسمها فيها .

ثم نثر الحسن بن سهل بعد ذلك على سائر الناس دراهم ودنانير ،
وبعض العنبر وأوعية المسك ، وانفق خمسين مليون درهم على
المأمون وقواده وجميع اصحابه وسائر جنده واتباعه حتى الجمالين
والمكارين والملاحين ، وكانوا خلقاً لا يحصون من الكثرة ، ولا
عجب في ذلك فقد كانت عدة الملاحين حسب نيفاً وسبعين الف
ملاح ، وأنشد الشعراء في ذلك وأطرب الخطباء ، وكان من
الشعراء الذين حضروا هذا العرس العظيم محمد بن حازم الباهلي
صاحب :

حسن النفس وأحلمها على ما يؤينها تعش سالماً والقول فيك جميل
فقال :

بارك الله للحسن وللبوران في الحق
يا بن هارون قد ظفرت ولكن ببنت من ؟

فلما بلغ هذان البيتان المأمون قال : والله ما ندري أخيراً
أراد أم شراً ؟

وكان منهم علي بن جبلة المعروف بالعكوك ، فأعطاه الحسن
ابن سهل عشرة آلاف درهم قبل أن يستشده وقال : إلى أنت
نمفرغ ، فقال علي بن جبلة في قصيدة له :

أعطيتني يا ولي الحق مبتدئاً عطية كافأت مدحي ولم توفي
ما شئت بقرق حتى نلت ريقه كأننا كنت بالجدوى تبادرني

ولما رجع المأمون إلى بغداد بعد أربعين يوماً أو أكثر وهب
لحسن بن سهل عشرة ملايين درهم .

وكانت أم جعفر زبيدة زوجة هرون الرشيد حاضرة ذلك
الزفاف بفهم الصلح ، فألبست بوران من هداياها « البندنة الأموية » ،
وهي من الثياب الغالية جداً ، استولى عليها بنو العباس من بني
أمية ، وأعطتها نهر الصلح وكان ملكاً لزبيدة أو أقطاعاً لها ،
وعاشت السيدة بوران ببغداد وخارجها مع المأمون ثماني سنوات ،
ثم توفي زوجها في سنة ٢١٨ قرب طرسوس من بلاد الروم ،
وكانت هي معه وفي صحبته ، فعادت إلى بغداد مع الجيش
العباسي الغازي ، وكان أبوها قد بنى على شاطئ دجلة الشرقي
ببغداد بنايات فخمة ، وكانت هذه البنايات قرب القصر الجعفري
الذي كان في أراضي المحكمة الشرعية وما حولها ، وسمي « القصر
الحسني » نسبة إلى الحسن بن سهل ، ثم توفي الحسن سنة ٢٣٥ أو
بعد سنة فورثت ابنته بوران ذلكم القصر . وفي عهد الخليفة
المعتمد على الله العباسي كانت سامرا عاصمة للخلافة العباسية ، إلا

ان هذا الخليفة كان يتردد الى بغداد ليلهو وبشرب ، واخوه
طلحة ولي عهده مشغول باصلاح الدولة وجمع الجيوش ، لحرب علي
ابن محمد صاحب الزنج الثائر - كان - علي بن العباس المدعي انه
صاحب الزمان ، واستحسن المعتمد على الله قصر الحسن بن سهل
اي القصر الحسيني ، فطلب الى السيدة بوران ان تنزل له عنده ،
فاستنظرته اياماً لتفريغه وتسليمه ثم ريمته وجصصته وبيضته ،
وفرشته باحسن الفرش واجلها وعلقت اصناف الستور على ابوابه ،
وملأت خزائنه بكل ما يصلح خلفاء ذلكم الزمان من الآلات ،
وربت فيه خدماً وجواري تدعو الحاجة الى استخدامهم والانتفاع بهم
فلما فرغت من ذلكم انتقلت من القصر الحسيني ، وراست الخليفة
المعتمد على الله في ان ينتقل اليه ، فانتقل اليه ووجد فيه من
الاشياء ما استحسنته واستكثرت ، وصار القصر المذكور اصلاً لدار
الخلافة العباسية بعد نقلها من سامرا نقلاً كاملاً ، في زمان المعتمد
بالله العباسي ابن اخي المعتمد الذي أسلفنا ذكره .

وبقيت السيدة بوران ببغداد الى ان توفيت فيها ، يوم الثلاثاء
لثلاث ليل بقين من شهر ربيع الاول سنة ٢٧١ هـ ، في خلافة
المعتمد على الله ، ودفنت في محلة الحرم المعروفة ارضها اليوم
بالعيواضية وما حولها ، وجعل لقبرها قبة ، ثم عرفت تلك المقبرة
باسم « المقبرة السهلية » ولعلها نسبت الى جدها سهل والد الحسن
ابن سهل - على الطريقة العربية - في النسبة ، اعني ان العرب
تنسب أمثال هذه المحدثات الى والد المؤسس وجده لا الى المؤسس
نفسه ، كما قالوا « الدولة العباسية » و « الدولة الاموية » ، مع ان

العباس وامية لم يؤسس احد منها دولة . وفي محرم سنة ٤٨٥ هـ
 أمر السلطان ملكشاه السلجوقي بعمارة جامع عند قبر بوران ،
 وهو الجامع المعروف بجامع السلطنة فأصبحت قبة قبرها مقابلة
 لقصورة الجامع ، وكلاهما كان قريباً من دار المملكة السلجوقية ،
 فعلى هذا تكون مقبرة الشهداء الحالية التي بباب المعظم من
 المقبرة السهلية حيث دفنت السيدة بوران او من مكان كان
 قريباً منها ، وقبتها بقيت قائمة الى ما شاء الله ، حتى ليجد الناظر
 صورتها في رسم بغداد الذي رسمه الاستاذ المطراقي ، اعتماداً على
 رؤيته لهذه المدينة أيام احتلال السلطان سليمان القانوني لها سنة
 ٩٤١ ، ولم اجد لتوبتها ذكراً ولا صورة بعد ذلك التاريخ ، فقد
 عفا قبرها مع القبور الدارسة ودرس جامع السلطان ملكشاه مع
 كونه بيتاً من بيوت الله ، ولا يسلم من الزوال والعفاء والفساء
 الا الله تعالى .

السيدة شجاع ام المتوكل على الله

ومخاربه ام المستعين بالله

اسم هذه السيدة شجاع ، وهو غريب عن الاسماع في أول وهلة ، وإذا علمنا أن من معاني الشجاع في العربية « الحية الشديدة الجريئة » أيقنا ان هذه السيدة قد سميت باسم هذا الضرب من الحيات ، وكانت شجاع في الاصل جارية مملوكة مثل اكثر امهات الخلفاء العباسيين ، وقد ثبت بالعلم أن اختلاط دماء الاجيال والاقوام يطور الأولاد ، ويورث الصفات ، فنسل بني العباس الخلفاء تعاورده الصلاح والفساد بحسب الامم التي تزوجوا منها .

كانت شجاع تركية الاصل خوارزمية طبخارية البلاد من إقليم طخارستان فيما وراء النهر ، وجلبها الجلابوت في الرقيق وباعها النخاسون في العراق ، فصارت إلى المعتصم بالله بن هارون الرشيد ، فأولدها أبا الفضل جعفر المتوكل على الله ، سنة ٢٠٥ في خلافة أخيه عبد الله المأمون ، وكانت للمعتصم جارية قبل شجاع من الجوارى الروميات ، اسمها قراطيس ، وولدت له أبا جعفر هارون الملقب بالواثق بالله سنة ١٩٥ ، في أيام النزاع بين الأمين والمأمون ، وقد جرت العادة أن أبناء العلات أي أبناء الرجل من نسوة شتى ، يختلفون ويتضاغنون لاختلاف امهاتهم ، وتضاغنهن ، دون بني الاعيان وهم الاخوة من الأبوين ، ودون الاخوة الاخفاف وهم

الذين امهم واحدة وآباؤهم شتى ، وسبب ذلك ان تصافي النساء
يؤدي في الغالب الى تصافي الرجال ، وتشاحنهن يؤدي الى تشاحنهم ،
فلا جرم ان العداوة نشأت بين الوائق بالله و اخيه المتوكل على الله ،
بسبب التعادي بين امهاتهما وثبتت العداوة بينهما وان كانت ابوهما
المعتصم قد مات ولتلكم العداوة كانت حال المتوكل في خلافة
اخيه الوائق انعس حال ، يحبه ويساء لقاءه ، وتعطل ارزاقه
اي معاشاته ، ويستهزأ به ويحز شعره ، ويفض على الوائق
لأضعف الأسباب ، ومن اخبار الاستهزاء به والمعاينة له ، ان
حمدون بن اسماعيل النديم ، وكان ينادم المعتصم بالله ، اتصل بالوائق
بالله وناذمه بعد ابيه ، وكان يعلم اغراضه عن اخيه المتوكل ،
فكان يعيث به ، ولقد جاء مرة بحية في كفه واخرج رأسها
للمتوكل تعريضاً بأمه شجاع ، لأن الشجاع كما ذكرنا نوع من
الحيات ، وكان هذا الجون البارد يعجب الخليفة الوائق ، وما
أدري اي غضاظة على المتوكل في تسمية امه بالحية ؟

واذ كانت حالة المتوكل نعمة في خلافة اخيه الوائق استدل
بذلك على رداة حال امه شجاع ، ولذلك لم يكن لها شأن في
عهدده ، فلما توفي الوائق وذلك سنة ٢٣٢ كما هو معروف ولي
المتوكل الخلافة غاضباً منتقماً ، عاقداً للنية على مخالفة اعمال اخيه
كأباً ، والحق والغضب اقبح العيوب في سياسة الممالك ، فلذلك
لم ينجح المتوكل في سياسته الانتقامية .

وفي سنة ٢٣٧ في خلافة المتوكل حجبت امه السيدة شجاع الى
بيت الله الحرام فخرج المتوكل معها من سامرا فشيّعها الى النجف وعاد ،

وكانت في صحبة حفيدها محمد بن المتوكل وهو الذي لقب في
استخلافه بالمنتصر، وفي سنة ٢٤٥ غارت مشاش وهي عين بحري
ماؤها في جبال الطائف حتى تصل عرفات وتفضي الى مكة، فأصاب
اهل مكة العطش وبلغ ثمن القربة الواحدة ثمانين درهما، فبعثت
السيدة شجاع من اصحابها واصلاح قناتها وانفقت على ذلك من مالها،
وكانت مقبلة على مثل هذا من الاعمال الخيرية والآثار الحسنة .
وكان لها كثير من الاملاك والقرى فمن ذلك قرية بناحية
واسط، ذكرت في حوادث التاريخ استطراداً، فان اخبار هذه
السيدة قليلة، فالتواريخ لم تفصل سيرتها، كما فصلت سير كثير
من امهات الخلفاء وسيدات البلاط العباسي في سامرا وبغداد .

ولست ليال خلون من شهر ربيع الآخر توفيت بسامرا السيدة
شجاع، وكانت وفاتها قبل قتل ابنها المتوكل على الله بستة أشهر،
وصلى عليها حفيدها المنتصر بالله، ودفنت هناك عند المسجد الجامع
في المتوكلية، وهي المدينة المعروفة بالجعفرية قديماً واليوم بأبي دلف .
وكانت تركتها من الدنانير خمسة ملايين وخمسين الف دينار،
ومن الجوهر ما قيمته مليون دينار، قال أحد المؤرخين في
وفيات سنة ٢٤٧ « وتوفيت شجاع أم المتوكل وكانت خيرة
كثيرة الرغبة في الخير، وخلفت من العين خمسة آلاف دينار
 وخمسين الف دينار، ومن الجوهر ما قيمته الف الف دينار،
ولا تعرف امرأة رأت ابنها وله ثلاثة اولاد ولادة عهود إلهي »
أراد بقوله الاخير أبناء المتوكل محمداً المنتصر بالله وزيراً المعتر
بالله وابراهيم المؤيد بالله هذا ما وصل الي من اخبار السيدة شجاع .

السيدة مخارق

اما السيدة مخارق والددة الخليفة المستعين بالله فكانت جارية روسية الاصل ، وامتلكها الامير محمد بن المعتصم بالله ، فولدت له فيمن ولدت ، أحمد وهو الذي لقب بالمستعين بالله لما ولي الخلافة ، وكانت ولايته لها سنة ٢٤٨ ، وكان من ضعفة الخلفاء ، فقد أطلق في عهده يد أتامش الامير التوكي وشاهك الخادم ويد أمه مخارق ، وأباحهم ان يفعلوا ما يريدون ببيوت الأموال ، ولم يمنع امه من شيء تريده ، وكان لها كاتب اسمه سلمة بن سعيد وكان نصرانياً بارعاً في الكتاب والحساب ، فكانت الاموال التي تحمل من جميع الممالك العباسية الى سامرا حضرة الخلافة ، يصير كثير منها الى السيدة مخارق ، وكانت تنفق اتفاق من لا تخاف الفقر ، ولا تعلم ان صلاح الممالك وسداد أمور الخلافة باقيا ما بقيت الاموال في بيوتها ، وصرفت الى وجوها ومن أخبار تحرقها في الاتفاق قصة بساط التماثيل ، قال احمد بن حمدون النديم : عملت ام المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الاجناس ، وصورة كل طائر ، من ذهب وعيونها من يواقيت وجواهر ، أنفقت عليه الف الف دينار وثلاثين ألف دينار ، وسألت المستعين ان يقب عليه وينظر اليه ، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته ، فقال لي المستعين ولأترجة الهاشمي : اذهبا فانظرا اليه ، فذهبنا ومعنا الحاجب ، فرأيناه ،

فوافقه ما رأينا في الدنيا شيئاً أحسن من ذلك البساط ، ولا رأينا
شيئاً حسناً في الدنيا إلا وقد عمل فيه ، فمددت الي يدي الى
غزال من ذهب عيناه ياقوتتان فوضعت في كفي ، ثم عدنا الى
المستمعين فوصفنا له البساط وحسن ما رأينا فيه ، وقال أترجى
المهاتمي المستمعين : يا امير المؤمنين ان ابن حمدون قد سرق منه
شيئاً ، وغمره على كفي ، فأخرجت الغزال وأريت المستمعين ،
فقال لنا : بجمالي عليكما ارجعا فخذوا ما أحببتما ، فمضينا فلما
اكرمنا وأقيمتنا وأقبلنا نشي كالجالي ، فلما رأنا المستمعين ضحك ،
فقال لبقية الجلساء وفيهم يزيد المهلي : ونحن فما ذنبنا يا امير
المؤمنين ؟ فقال لهم : قوموا فخذوا ما شئتم ، ثم قام من مجلسه
فوقف على الطريق الذي يمر فيه الجلساء ، ينظر كيف يحملون
اشياء البساط ، وهو يضحك ، ورأى يزيد المهلي سطلا من ذهب
ملوءاً مسكاً ، فأخذه بيده وخرج ، فقال له المستمعين : الى أين ؟
فقال : الى الحمام يا امير المؤمنين ، فضحك المستمعين من قوله ،
ثم أمر الفراشين والخدم ان ينهبوا الباقي فانتهبوه ولما علمت امة
بخارق بذلك ارسلت اليه خادماً برسالة تقول له فيها ، لقد كنت
احب ان تراه قبل ان تفرقه ، فاني أنفقت عليه مائة الف الف
وثلاثين الف دينار ، فأمر بان يحمل لها من بيت المال مقدار
الذي أنفقت حتى تعمل بساطاً مثله فعملته ، ومضى فرآه ولكنه
فعل به كفعله بالاول ، وفرقه على الندماء .

وفي سنة ٢٥١ خلع الجند بسامرا المستمعين بالله ، فهرب الى
بغداد مع جماعة من الأمراء ، وبويع المعتز بالله بن المتوكل ،

وترك المستعين الاموال بسامرا ، وكان في بيت المال نحو من
خمسة الف دينار ، وفي خزانة السيدة مخارق نحو مليون دينار ،
وفي خزانة العباس بن المستعين نحو ستمائة الف دينار ، وبقيت
هذه السيدة بسامرا كالمعتقلة إلى ان خلع المستعين نفسه ببغداد
فبعث المعتز بها وبابنته وعياله اليه ، ثم قتل المستعين سنة ٢٥٢ ،
وبقيت السيدة مخارق بعد قتل ابنها ولم يصل إلى تاريخ وفاتها
لندور أخبارها .

السيدة فريدة صاحبة الوراق بالله

وزوجة المنوكل على الله

اول ما يسمع العالم بتاريخ العرب باسم « فريدة » ، يدرك انها جارية من الجواري لا حرة من الحرائر ، لأن هذا الاسم من اسماء الجواري المملوكات عند العرب ، حتى ان البيوتات العربية لا تزال تسمي الجواري الحبشيات بفريدة ، والفريدة هي الدرة الكبيرة ، فاذا سميت بها السوداء فذلك من تسمية الشيء بضده . كانت فريدة جارية بيضاء ، حسنة الوجه حادة الفطنة والفهم ، وكانت في ملك عمرو بن بانة المغني ، فاهداها الى الخليفة الوراق بالله هرون بن المعتصم ، وهي في كمالها من حيث التربية والأدب والغناء ، فصارت أثيرة عنده ، حظية كل الخطوة لديه ، وطلب الوراق الى السيدة شارية صاحبة ابيه المعتصم ، أن تم تعليمها الغناء ، فعلمتها ولم تبق في تعليمها غاية ، الى أن حدث بينها شيء من الخلاف بحضرة الوراق ، فأخذت شارية تقصر في تعليمها . وأغرم بها الوراق غراماً شديداً ، وتعلقت هي به تعلقاً عجباً ، وكان الوراق مولعاً بسماع الغناء ، وكان يغني اذا انبسطت نفسه وانشرح صدره ، وقد صنع في الغناء مائة لحن ما فيها لحن ساقط ، ولم يكن يحضر مجلسه أعلم منه بالغناء ، ولا كان

في الحلفاء أعرف منه بهذا الفن ، وكان إذا أخذ العود وغنى أتى
 بالعجب العجائب ، وأعرب عن هوى في فن الغناء ، وبراعة في
 الضرب ، وكشف عن نفس عريضة في نسب الطرب ، وإذا كان
 الواصل خليفة مفننا أي ذا فنون ، كان يجيد في حبيته فريدة
 عوناً على ترجمة فنه في الغناء والموسيقى ، فكم من لحن من
 الحانة المائة ، أراد عرضه على اساتذة الغناء كاسحاق بن ابراهيم
 الموصلي ، فلم يستطع ذلك إلا بان يعلمه فريدة ، وفريدة تلقية
 على الاساتذة من وراء الستارة ، ويدعي أنه لحن قديم وقع اليه
 حتى يسمع تقريظه أو استقباحه ، ويصلح ما يستلزم الاصلاح منه .
 وله في ذلك حكاية طريفة غضب فيها على اسحاق الموصلي ، لأنه
 وشي اليه به بأنه يستقيح الحانة على علم منه بانها له ، وأمر به
 فسحب حتى أخرج من مجلسه في دار الخلافة بسامرا ، ولكن
 فريدة اقنعت به بأن اسحق الموصلي مغن صاحب فن وصناعة وأن
 المؤمن بحمال الفن المتقن له ، العالم بمقاييسه ، لا يجيد عن الحق في
 النقد قيد شعرة ، وأعلمته ان المعيد للحنه الجديد ، وهو مخارق
 المغني ، أساء تأديته فاستبشعه اسحاق ، وما زالت به حتى رضي عن
 اسحاق وأحضره مجلسه ، ثم غنت فريدة لحن الواصل فلما سمعه
 اسحاق قال : هذا صوت صحيح الصنعة والقسمه والتجزئة ،
 وما هكذا سمعته في المرة الاولى ، وقد وفيت لاسحاق في هذه
 الشفاعة بحق التلمذة لانه كان قد صنع لها لحناً من الالان المختارة
 التي كانت اغلى من الموسيقيين .

وهذه السيدة الحان كان يغنيها اكبر المغنين كابراهيم بن المهدي

العباسي ، ولا سيما لحنها في أبيات أبي العنابية التي يقول فيها :

قال لي احمد ولم يدر ما بي انحب الغداة عتبة حقا
فتنفت ثم قلت نعم حباً جرى في العروق عرقاً فعرقا
لو تجسين يا عتيبة قلبي لوجدت الفؤاد قرحاً تفقفا
قد لعمرى مل الطبيب ومل الاهل مني بما اقا سي وألقى
ابتني مت فاسترحت فاني أبداً ما حيت منها ملقتي

وكان بين الواثق بالله وأخيه جعفر الذي لقب في خلافته
بالمتوكل بغضاً وشجناً ، كما كان بين موسى الهادي وأخيه هارون
الرشيد ، فكان جعفر يتربص موت الواثق كما كانت هارون
يتربص موت موسى الهادي . ونوفي الواثق بسامرا سنة « ٢٣٢ » هـ
وكانت خلافته خمس سنوات وتسعة أشهر وأياماً ، ولم يتجاوز عمره
الخامسة والثلاثين . وكان قبل موته يتخيل صيرورة الخلافة الى
أخيه المتوكل ، واستيلاءه على الدولة ، حتى لقد كان يتصور ان
فريدة ستصير إلى المتوكل وتغيبه . ولقد ذكر محمد بن الحارث بن
يسختر احد الذين كانت لهم نوبة في خدمة الواثق ، ان الواثق
ارسل ذات يوم يطلبه في غير يوم النوبة فخاف وارتاع ودخله
فزع شديد ، فركب دابته حتى وافى دار الخلافة ، فأخذ
الخدم بيده فأدخلاه في بهرات لا يعرفها ولا عهد له بها ، حتى
أفضى الى دار مفروشة الصحن ، ملبسة حيطانها بالوشي المنسوج
بالذهب ، ثم بلغ رواقاً أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك الوشي ،
فاذا هو بالواثق بالله جالساً في صدر الرواق على سرير مرصع
بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، وإلى جانبه السيدة فريدة

وعليها مثل ثيابه وفي حجرها عود ، فأمره بالجلوس وأمر له برطل
من الشراب ، واندفعت فريدة تغني :
أهابك أجلاً وما بك قدرة

عليّ ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس يا ليل أنها
قلتك ولكن قل منك نصيبها

فجاءت بغناء سحري وجعل الواصل يجاريها ، وهي في خلال
ذلك تغني الصوت بعد الصوت وغنى محمد بن الحارث المذكور في
خلال غنائها ، وانهم كذلك في مسرة وغناء وحبور ، إذ رفع
الواصل رجلاه فضرب بها صدر فريدة ضربة تدحرجت بها منها
من أعلى السرير وتكسر عودها ، فهربت وهي تصيح ، وبقي
محمد بن الحارث كالمنزوع الروح وخاف أن تكون عينه التي جنت
عليه ، واطرق الواصل ساعة إلى الأرض ، قال محمد بن الحارث :
فاني لكذلك إذ قال لي الواصل : يا محمد . فوثبت ، فقال :
ويحك أرايت أغرب بما تهبأ علينا ؟ فقلت : يا سيدي الساعة والله
تخرج روحي ، فعلى من أصابنا بالعين لعنة الله ، فما كان السبب ؟
الذنب من الذنوب ؟ فقال الواصل : لا والله ولكن فكرت ان
جعفراً - يعني اخاه المتوكل - يقعد هذا المقعد ، ويقعد مع
فريدة كما هي قاعدة معي ، فلم اطق الصبر وخامرني ما اخرجني
إلى ما رأيت ، قال محمد بن الحارث : فلما علمت السبب سري
عني وقلت : بل يقتل الله جعفرأ يا امير المؤمنين وتحيا ابداً ،
وقبلت الأرض ، وقلت : يا سيدي ، الله الله ، ارحم فريدة

وأمر بردها . فقال لبعض الخدم الواقفين : من يجيء بها ؟ فلم
يكن بأسرع من ان خرجت ، وفي يدها عود وعليها غير الثياب
التي كانت عليها ، فلما رآها جذبها وعانقها ، فبكت وجعل هو
يبكي ، قال محمد بن الحارث : واندفعت انا في البكاء معها ،
ثم قالت فريدة للوائق : ما ذنبي يا مولاي ويا سيدي ، وبأي
شيء استوجبت هذا ؟ فأعاد عليها ما فكر فيه ، وهو يبكي وهي
تبكي ، فقالت له : سألتك بالله يا أمير المؤمنين الا ضربت عنقي
هذه الساعة ، وأرحتني من الفكر في هذا ، وأرحت قلبك من
الاهتمام بي ، وجعلت تبكي ويبكي ، ثم مسح اعينها ورجعت هي
الى مكانها ، قال محمد بن الحارث : واومأ اللوائق الى خدام
وقوف بشيء لا اعرفه ، فمضوا واحضروا اكياساً فيها دنانير
ودراهم ، واحضروا رزماً فيها ثياب ، وجاء خادماً بدرج ففتحه
واخرج منه عقداً ما رأيت قط مثل جواهر فيه ، فألبسه فريدة
وأحضرت بدرة فيها عشرة آلاف درهم ، وخمسة نخوت فيها
ثياب ، فوضعت بين يدي ، وعدنا الى احسن مما كنا فلم نزل
كذلك الى الليل ثم انصرفنا وحملت معي الدراهم والثياب .

وتوفي اللوائق بالله فلم يكن هم المتوكل اخيه إلا ان يتزوج
السيدة فريدة ، فتزوجها وامرها ذات يوم ان تغني فأبت وامتنعت
وفاءً للوائق فأقام المتوكل على رأسها خادماً وامره ان يضرب
رأسها ابداً او تغني ، فلما ايقنت بقسوة المتوكل وصغر نفسه
ولامة طبعه اخذت تغني :

مقيم بالمجازة من قنونا واهلك بالأجيفر فالنماد

فلا تبعد فكل فتى سياقي عليه الموت يطرق او يغادي
ثم ضربت بالعود الارض ، ورمت بنفسها عن السرير الذي
كانت عليه ، ومرت تركض وهي تصيح : واسيدها ، تنسحب
سيدها الوائق ، ولم يظهر لها ذكر بعد هذه الحادثة الغريبة .
اما الخاتمة وصناعتها الفنية فيذكرها ابد الدهر ، واما وفاءها
لصاحبها الخليفة الوائق فمن نوادر اخلاق النساء ولا سيما ذوات
الفن .

السيدة قبيصة

صاحبة المتوكل على الله وأم المعتز بالله

السيدة قبيصة ، صاحبة الخليفة المتوكل على الله وأم الخليفة المعتز بالله وأخيه الأمير اسماعيل ، وانما سميت قبيصة كما سمي العبد الاسود بكافور على تسمية الشيء بضده ، فقد كانت جارية رومية الاصل رائعة الجمال فائقة الملاحظة ، فسمها المتوكل « قبيصة » لحسن صورتها ، وكان المتوكل شديد الميل والاقبال عليها . وغرابة اسمها سببت تصحيفه في كتب التاريخ فجاء على صورة « صبيصة » و « فتيصة » و « قنيصة » . ولها في تاريخ الأدب العربي أخبار جميلة ، وفي تاريخ العراق السياسي أنباء خطيرة ، وفي تاريخ سامرا خاصة ذكر مستفيض ، لأنها كانت سيدة من سيدات البلاط العباسي ، أيام كان البلاط في سامرا ، فهي في تلك الأيام عاصمة الدولة العباسية ، وحضرة العالم الاسلامي ، وملتقى عظماء الدنيا ومبارة الخلفاء والوزراء والكبراء ، وغاية التجار والسياح والعلماء والادباء ، ومقر الأحزاب السياسية والقواد والجيوش ، وجميع أصناف الناس ، وسيدة المدن الحديثة .

ولي صاحبها وسيدتها المتوكل بن المعتصم الخلافة ، بعد وفاة أخيه الواصل بسلام سنة ٢٣٢ ، واختلت أمور الدولة العباسية في

زمانه ، لامور كثيرة ليس هذا موضع شرحها ، وكان من
أشدها اخلاً بالامور ، كثرة نفقات المتوكل على القصور التي بناها
بسامرا ، ولم يكن بيت المال يتحمل ذلك فأفلست الدولة ، ومن
المعلوم في سياسة الدول أن قلة المال سبب في الاختلال ، وأن
الدولة التي لا مال لها زائلة لا محالة .

على ان الادب العربي في ذلكم العصر ، كان على الضد من
الحالة السياسية والحالة المالية - في تقدم وانساع ، فقد نشأ فيه
جوار شاعرات وجوار أدبيات ، منهن فضل ومحبوبة الشاعر
اللتان طار صيتهما واشتهر شعرهما ، قال علي بن الجهم الشاعر :
دخلت على المتوكل ، وقد بلغني أنه كلم قبيحة جاريتيه فأجابته
بشيء أغضبه ، فرماها بمخدة فأصاب عينها فأثرت فيها فتأوهت
وبكت ، وبكى لبيكها ابنها المعتر بالله ، فخرج المتوكل من
عندها وقد أصابته الحى من الغم والهم والغضب ، قال علي بن الجهم ،
فلما بصر بي المتوكل دعاني ، وإذا القتح بن خاقان وزيره ،
وهو يري بختيشوع الطيب قارورة المتوكل ويشاوره في مرضه ،
فقال لي المتوكل : يا علي : قل شعراً في علي هذه وصف
ان الطيب ليس يدري ما بي ، فقلت :

تنكر حال علي الطيب وقال أرى يحسبك ما يريب
جست العرق منك فدل جسي علي ألم له خبر عجيب
فما هذا الذي بك هات قل لي فكان جوابه مني النجيب !
وقلت أيا طيب الحجر دائي وقلبي يا طيب هو الكئيب
فجرك رأسه عجيباً لقولي وقال : الحب ليس له طيب

فأعجبني الذي قد قال جـداً : بلى إذا رضي الحبيب
فقال هو الشفاء فلا تقصر : فقلت : أجل ولكن لا يحجب
ألا هل مسعد يبكي لشجوي فإني هائم فرد غريب ...
قال علي بن الجهم : فقال لي المتوكل : احسنت وحياتي ، يا
غلام اسقني قدحاً ، فجاءه الغلام بقدر فشرب وسقيت الجماعة
مثله ، وخرجت إليه فضل الشاعرة بأبيات امرتها قبيحة أن تقولها
عنها ، فقرأها فإذا هي :

لأكتمن الذي في القلب من حرق حتى أموت ولم يعلم به الناس
ولا يقال : شكا من كان يعشقه إن الشكا لمن تهوى هي اليباس
ولا أبوح بشيء كنت أكتمه عند الجلوس إذا ما دارت الكاس
فقال المتوكل : احسنت يا فضل . قال علي بن الجهم : وأمر
لها ولي بعشرين ألف درهم ، ودخل إلى قبيحة جاريته فاسترضاها .
وقال يزيد بن المهلب الشاعر : كنا عند المتوكل يوماً وقد
غاضبته قبيحة ، فخرج إلينا فقال : من ينشدني منكم شعراً في معنى
غضب قبيحة علي ، واحتياجي أن أخضع لها حتى ترضى ؟ فقلت :
لقد أحسن محمد بن حازم الباهلي - يا أمير المؤمنين - حيث يقول :
صفحت برغمي عنك صفح ضرورة اليك وفي قلبي ندوب من العتب
خضعت وما ذنبي إن الحب عزني فأغضيت صفحاً عن معالجة الحب
وما زال بي فقر اليك منازع يذل مني كل تمتنع صعب
إلى الله أشكو أن ودي محصل وقلبي جميعاً عند مقتسم الحب
فقال المتوكل : احسنت وحياتي يا يزيد ، وأمر أن يغنى في هذا
الشعر ، وأمر لي بألف دينار . وهذه الحكاية شبيهة بحكاية علي بن

الجهنم ، تدل على ان قبيحة كانت كثيرة التجني على المتوكل .
وحكى احد الرواة قال : غضبت قبيحة مرة على المتوكل وهاجرتة ،
فجلس ودخل الجلساء والمغنون وكان فيهم عبد الله بن العباس
الربيعي المغني ، وكان عرف الحبر فقال هذا الشعر وغنى فيه :

« لست مني ولست منك فدعني وامض عني مصاحباً بسلام »
لم تجد علة تجني بها الذنوب فصار تعتل بالاحلام
فاذا ما شكوت ما بي قالت : قد رأينا خلاف ذا في المنام

قال : فطرب المتوكل وأمر له بعشرين الف درهم ، وقال له :
ان في حياتك يا عبد الله لأنساً وجمالاً ، وبقاء للمروءة والظرف .

وذكر احمد بن ابي قنن قال : خرجت قبيحة مرة الى مجلس
المتوكل في يوم نيروز ، ويدها كأس بلور بشراب صاف ، فقال
لها : ما هذا - فديتك - قالت : هديتي لك في هذا اليوم ، عرفك
الله بركته ، فأخذ الكأس من يدها ، فرأى على خدها مكتوباً
بالمسك « جعفر » وهو اسمه ، فشرب الكأس وقبل خدها ، وكانت
فضل الشاعرة واقفة على رأسه فقالت :

وكاتبة بالمسك في الخد « جعفر » بنفسى سواد المسك من حيث أثرا
لئن أثرت بالمسك سطرّاً بخدها لقد اودعت قلبي من الحزن اسطرا
فيا من لملوك الملك يمينه مطيع له فيما أسرّ واظهرها
ويا من منها في السريرة جعفر سقى الله من سقيا ثنائيك جعفر
فأمر المتوكل عريب المغنية فغنت في هذه الابيات ، وقيل ان

هذه الابيات لمحبة الشاعرة ، وإن فضل الشاعرة قالت :

سلافة كالقمر الباهر في قدح كالكوكب الزاهر

يدبرها خشف كبدر الدجى فوق قضيب اهيف ناضر
على فتى اروع من هاشم مثل الحسام المرهف الباتر
ولما سجن المتوكل على بن الجهم الشاعر الذي أسلفنا ذكره
نظم أبياتاً يستعطف بها ووجه بها الى السيدة قبيصة مستجيواً بها ،
مستغيثاً لها ، مستعيناً ايها على عدة ندماء المتوكل كانوا يجرؤونه
عليه ، ويغرونه بقتله ، فبعثت قبيصة بالابيات ابنها المعتز الى ابيه
المتوكل ، فعطف على ابن الجهم بعض العطف وآمنه من الهلاك ،
في تلك الايام التي كان الهلاك فيها ينصب على الانسان من
حيث لا يعلم .

وثلاث ليال من شوال سنة ٢٤٧ ، قتل المتوكل سيد قبيصة
بسامرا . قال شمس الدين بن خلكان في ترجمة المتوكل من كتابه
« وفيات الاعيان » : وكان السبب في قتل المتوكل - على
ما حكى - انه قدّم ابنه المعتز على ابنه المنتصر ، والمنتصر اكبر
منه سنّاً ، وكان يتوعد المنتصر ويسبه ويسب أمه حبشية ، ويأمر
الذين يحضرون مجلسه من اهل الخف بسبه ، فسعى المنتصر في
قتله ووجد الفرصة فقتله ، قلت وارثك المنتصر مع الامراء
الاتراك امراً فظيماً شنيعاً من حيث الاخلاق ، لان من التودي
في حماة النذالة والسفالة ، أن يقتل الانسان أباه كائناً من كان .
ولقد اهتمت قبيصة بتربية ابنها المعتز وتهذيبه وتأديبه وتعليمه ،
من ايام خلافة ابيه . قال ابو جعفر احمد بن عبيد بن ناصح الكوفي
النجوي ، مؤدب المعتز ومعلمه : لما اراد المتوكل أن يعقد للمعتز
ولاية العهد حططته عن مرتبته قليلاً ، واخرت غداه عن وقته ، فلما

كان وقت الانصراف قلت للخادم: احمله، فحمله، فضربته من غير ذنب،
فكتب بذلك الى المتوكل، واذا كنت في الطريق منصرفاً لحقني صاحب
رسالة، فقال: امير المؤمنين يدعوك، فدخلت على المتوكل وهو جالس
على كرسي والغضب يبين في وجهه، والفتح بن خاقان وزيره قائم
بين يديه متكئاً على السيف، فقال لي: ما هذا الذي فعلته بأبي
عبد الله - يعني ابنه المعتز - ؟ قلت: أقول يا امير المؤمنين ؟
فقال: قل انما سألتك لتقول، قلت: بلغني ما عزم عليه
امير المؤمنين - اطال الله بقاءه، فدعوت أبا عبد الله وخططت
منزله، ليعرف هذا المقدار من الخط فلا يعجل بزوال نعمة احد،
واخرت غداءه ليعرف هذا المقدار من الجوع، فاذا شكى اليه
الجوع عرف ذلك، وضربته من غير ذنب ليعرف مقدار الظلم
فلا يعجل على احد، فقال لي المتوكل: احسنت، وامر لي
بعشرة آلاف درهم، ثم لحقني رسول من السيدة قبيصة بعشرة
آلاف اخرى، فانصرفت بعشرين ألفاً. وهذه الحكاية على ان
السيدة قبيصة وصاحبها المتوكل كانا يودان حسن التربية.

وبويع بالخلافة بعد المتوكل ابنه المنتصر بالله، فلم تكن خلافته
إلا ستة أشهر، فبويع بالخلافة بعده احمد بن محمد بن المعتصم
ولقب « المستعين بالله »، ولم يبايع احد من ابناء المتوكل لان
المعتز وامه قبيصة والمؤيد، كانا خلعا انفسهما من ولاية العهد،
في خلافة أخيهما المنتصر، أجبرا على ذلك، ولان غيرهما من
ابناء المتوكل لم يكن مرغوباً فيه، وفي خلافة المستعين بالله
العباسي، تدخلت السيدة قبيصة في سياسة الدولة، لتحوز الخلافة

لابنهـا ابي عبد الله المعتز الذي دفع عنها بعد موت ابيه ،
وخلع من ولاية العهد في خلافة اخيه ، وبعد حروب وكروب
اصابت سامرا عاصمة الدولة العباسية وبغداد حاضرة المجد الاسلامي ،
خلع الخليفة المستعين من الخلافة ، وكان ذلك سنة « ٢٥٢ » ، اي
بعد سنتين وتسعة اشهر من استخلافه ، وبويع بالخلافة المعتز بالله ،
فحرضته امه قبيصة على القواد الاتراك ، وكانت اليهم امور الدولة
العباسية ، وقالت له : يا بني اقتلهم في كل مكان ، واخرجت
اليه قميص ابيه المتوكل مخضباً بدمائه ، فقال لها : يا اماء ارفعيه
والا صار القميص قميصين ، وخشي ان يقتلوه كابيـه .

ثم أخذ المعتز بن قبيصة يتبع ما عند المستعين من المال
والجوهر فأخذه ، حتى لقد أرسل اليه الجارية قرب وهي جارية
امه قبيصة ، يسأله ان ينزل له عن ثلاث جوار من جواري المتوكل
على الله ، كانت المستعين نفسه تزوجهن ، فنزل له عنهن وجعل
أمرهن الى أنفسهن ، فلم يكن لهن خلاص من الدخول في عبودية
المعتز بالله ، بعد ان كن زوجات حرات ، ثم دبر المعتز بالله في
قتل المستعين بالله بعد ان اعطاه العهود الميمنة والمواثيق الغليظة ،
فذبح كما يذبح الخروف وحمل رأسه الى المعتز بالله بسامرا ، وكان
في مجلس لهو وغناء ، وكانت جارية من جواري المستعين
المفصوبات ، تفتيه وندماءه في ذلكم المجلس من وراء الستارة
لأن امه قبيصة كانت جالسة مع الجواري ، ولما رأى المعتز الرأس
امر الغلظة في قلبه وفضاظة في نفسه ، ان يدخل به على الجواري ،
ويوضع بين يدي جارية المستعين المغنية ، وكانت معروفة بحبه

والتعلق به ، قال احد ندماء المعتز بالله : فنحن كذلك إذ سمعنا
من وراء الستارة ضجة أفزعتنا ، فاذا بجارية المستعين تصيح
والسيدة قبيحة تشتمها ، والجارية الصالحة تقول :
« يا قوم اخذوني غصبا ، ثم تجيئوني برأس مولاي المستعين
فتضعونه بين يدي » فسمعنا صوت العود قد ضرب به رأسها ،
وكانت التي ضربتها به السيدة قبيحة ، قال : فانصرفنا عن المجلس
افصح انصراف .

ومن هذا الخبر نعلم ان السيدة قبيحة وان كانت جميلة الصورة ،
كانت قبيحة النفس والأخلاق ، وانها لم تسلم من قباحة اسمها
قط ، والا فما هذه الوحشية المنكرة ؟ وكانت بخيلة تحب
الاموال ، وتخفيها في المواضع المستورة مع احتياج دولة ابنها
اليها ، ففي سنة « ٢٥٥ هـ » اعتقل مقدم القواد الاتراك صالح بن
وصيف ، كانها الحسن بن مخلد واحمد بن اسرائيل ، وغيرهما من
كتاب الدولة ، بحجة ان اموال الدولة في ايديهم وان الجنود
يحتاجون الى الارزاق اي المعاشات ، وقيدهم واثقلهم بالحديد على
رغم انف الخليفة وضرب احمد بن اسرائيل حتى كسرت اسنانه ،
وبطح الحسن بن مخلد فضرب مائة سوط ، ولم يستطع صالح بن
وصيف استخراج شيء من الاموال منهم ، فصار الجنود الاتراك
الى الخليفة المعتز وقالوا له « اعطنا ارزاقنا حتى نقتل لك صالح
بن وصيف » ، فأرسل المعتز الى امه قبيحة يسألها ان تعطيه مالا
ليعطهم ارزاقهم ، فأرسلت اليه تقول « ما عندي شيء » ، وقد وردت
لنا سفائح فلينتظروا حتى نقبض ونعطيهم » فعلت ذلك لبخلها وشحها ،

وابت اعطاء شيء مع علمها بأن حياة ابنها متوقفة على المال .
فلما رأى الاتراك ومن كان بسامرا من الجند المغاربة أن بيت
المال خال ، وان الخليفة المعتز وامه قد امتنعا من أن يسمحا
لهم بشيء من المال ، اجتمعوا على خلع المعتز من الخلافة ،
ولثلاث ليال بقين من رجب سنة ٢٥٥ حضروا دار المعتز بهوشة
وصباح ، وجلس رؤسائهم على باب داره ، وبعثوا اليه ان
أخرج الينا فبعث اليهم بجواب يقول فيه : « إني اخذت الدواء
امس وقد اجفاني اثنتي عشرة مرة ، ولا اقدر على الكلام من
الضعف ، فان كان امرأ لا بد منه فليدخل اليّ بعضكم فليعلمني ، فدخل
اليه جماعة من صغار القواد فجروا برجله ، بعد ما تناولوه بالضرب
بالدبابيس ، فخرج الخليفة وقميصه ممزق مخرق وآثار الدم على منكبيه ،
فأوقفوه في الشمس وسط الدار في وقت شديد الحر ، قال احد
اسباب الخليفة اي محسوبيه : فجعلت انظر الى الخليفة للمعتز يرفع قدمه
ساعة بعد ساعة ، من حرارة الموضع الذي أقيم فيه ، ورأيت
بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ، وجعلوا يقولون له : اخلع
الخلافة ، حتى اجبروه على خلع نفسه ، وأعطوه الأمان لانه قبيحة
ولاخته ولاينه ، ولكنهم وكلوا بامه نساءً يحفظنها على نية ان
يستخرجوا منها الاموال ، وبايع الاتراك بالخلافة محمد بن الواثق
وتلقب بالمهتدي بالله وهو زاهد بني العباس ، ودفع الخليفة المعتز
إلى عدة رجال يعذبونه ويتعنونه الطعام والشراب ثلاثة ايام ،
فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه ، ثم جصصوا سرداباً بالجص
الشخين ، وادخلوه فيه واطبقوا عليه بابه فأصبح ميتاً ، وكانت

وفاته لليلتين خلنا من شعبان من هذه السنة اي سنة ٢٥٥ .

اما امه قبيصة فقد كانت اتخذت في الدار التي تسكن فيها
سرباً اي طريقاً تحت الارض ، واحتالت هي والجارية قرب
واخت المعتز فهربن من السرب ، واختفين في سامراء ايضاً ، وبث
صالح بن وصيف على قبيصة العيون اي الجواسيس والارصاد ،
فلم يظفر بها ثم ظهرت من قبل نفسها في شهر رمضان من السنة
المذكورة ، وسلمت نفسها الى الاتراك ، ودلتهم على الاموال
التي عندها والذخائر والجواهر التي ادخرتها ، وكانت في الحقيقة
قد عزمت على الفتك بصالح بن وصيف ، وأمرت الكتاب على
ذلك وكتبت إلى موسى بن بغا بالري تسأله القدوم الى سامراء
وتترك ما قبله من البلاد ، فلما اوقع صالح بالكتاب - كما ذكرنا
في اول الاخبار - وعلمت انهم اقرؤا له بالمؤامرة ، بسبب
ما نالهم به من العذاب أيقنت بالهلاك ، فعملت في التخلص
فاخرجت ما في الخزان داخل قصر الجوسق بسامراء من الاموال
والجواهر وفاخر المتاع فاودعته ودائع ، وضمتها الى ودائع قديمة ،
ثم اظهرته للاتراك ، ودلهم احد الجواسيس على كنز لها كان في
دار صغيرة قريبة من المسجد الجامع بسامراء . قال احد اصحاب
صالح بن وصيف : جاء بنا ذلك الرجل الجاسوس إلى دار صغيرة
نظيفة بمحضر المسجد الجامع ، فدخلناها ففتشناها فلم نجد شيئاً ،
فأخذ الرجل فأساً فجعل ينقر بها الحيطان ، حتى وقعت الفأس
على موضع استدل بصوته على ان فيه شيئاً ، فهدمه وإذا من
ورائه باب ففتحناه ودخلنا اليه ، فأفضى بنا إلى سرب وصرنا

الى دار تحت الدار التي دخلناها ، بشكلها وبنائها ، فوجدنا من
الدنانير في اسقاط موضوعة على رفوف زهاء الف الف دينار
اي مليون دينار ، ووجدنا ثلاثة اسقاط : سبطاً فيه زمره
من النوع العالي ، وسبطاً دونه فيه حب لؤلؤ كبير ، وسبطاً
دونه فيه ياقوت احمر لم ار مثله في الدنيا ، فقوّم الجميع اي
قدرت قيمته فبلغت الفي الف دينار اي مليوني دينار ، فحملناه
كله الى صالح بن وصيف ، فلما رآه جعل لا يصدق ولا يوقن ،
حتى تأمله ودقق النظر فيه ، فقال عند ذلك : « قبح الله قبيحة
وفعل بها وفعل ، عرضت ابنها للقتل في مقدار خمسين الف دينار ،
وعندها مثل هذا في خزانة واحدة من خزائنها ! »

وكان لقبيحة اموال ببغداد فكتبت تأمر بحملها الى سامرا
لتعطيا صالح بن وصيف ، فوصل منها في شهر رمضان قدر
خمسائة الف دينار ، ووقعوا لها على خزائن ببغداد فحملت
مقادير منها الى سامرا ، ولم تزل تباع تلك الخزائن بيعاً متصلاً
ببغداد وسامرا عدهور حتى نفذت ، ولم تزل قبيحة مقيمة
بسامرا الى ان شئخص الناس الى مكة حاجين في هذه السنة ،
فأشخصت هي وابنها الثاني اسماعيل وحفيدها عبد الله بن المعتز وجماعة
غيرهم الى مكة منفين ، والظاهر ان صالح بن وصيف لم يكتف
بكنوزها بل تجاوزها الى الاعتداء على عفافها قاتله الله - فقد
سُعت في طريقها الى بيت الله الحرام تدعو الله على صالح بن
وصيف بصوت عال تقول : « اللهم أخز صالح بن وصيف كما
هتك ستري وقتل ولدي ، وبدد شئلي واخذ مالي وغربني عن

بلدي وركب الفاحشة مني » ، وبقيت قبيحة بمكة ، مع جماعتها
منفية حتى اعادها الى سامرا الخليفة المعتمد على الله احمد بن جعفر
المتوكل وكان ذلك في اول خلافته ، واکرمها فهي صاحبة ابيه ،
ثم قتل صالح بن وصيف سنة ٢٥٦ .

وقضت السيدة قبيحة بقية عمرها في سامرا حتى توفيت بها ،
في شهر ربيع الاول سنة ٢٦٤ هـ في خلافة المعتمد على الله المذكور
آنفاً ، ودفنت هناك ، تاركة للتاريخ سيرة من اعجب السير ،
سيرة سيدة جميلة صبيحة قاسية القلب متروفة سياسية ، امتحن
الدهر بها وامتحنها ، ورزاها القدر صاحبها المتوكل وابنها المعتز
وعرضها واموالها وكنوزها ، وقد ذكر لها المؤرخون ذوقاً في
البناء ، قال احمد بن حمدون : بنى المعتز في قصر الجوسق في
الصحن الكامل بسامرا بيتاً قدرته له امه قبيحة ومثلت حيطانه
وسقوفه ، فكان احسن بيت رُئي ، فدعانا المعتز اليه ، الى آخر
الخبير بما لا يخرج عن السكر والغناء ، ويعنيها منه انها هي التي
نظمت خارطته وصورته ، فبرهنت على حسن ذوقها في العمارة .

فضل صاحبة المتوكل

كانت فضل من النسوة الخوالد ، ذوات الآثار الصرية
وأولات الاخبار الطريفة والآداب البارة . ولئن جاز للتاريخ
أن يتغاضى عنها من حيث هي سيدة من سيدات البلاط العباسي ،
لأن تاريخنا تاريخ الرجال ، لم يجوز له أن يتغاضى عنها من حيث
أدبها الرفيع وشعرها الشاعر وروحها الحفيفة ، وفصاحتها المحكمة
وبديتها الجاضرة في النظم والنثر .

كانت فضل من الجواري المولدات في اليمامة في القسم الشرقي
الجنوبي من جزيرة العرب ، ونشأت هناك في رجل من قبيلة
عبد القيس ثم نقلت الى العراق مثل كثير من الجواري المولدات
الموالي ثقفن بالثقافة العربية ، وادبن بالآداب الاسلامية ورببن
على الفصاحة والبلاغة ودربن على الانشاء والايقاع والعزف والغناء ،
كل على حسب قابليتها الطبيعية وملكتها المكتسبة وهواها وولعها .
اشتراها بالعراق محمد بن الفرج الرُّجَّي ، من اعيان الدولة
العباسية ، اشتراها على انها اديبة أربية ، شاعرة مجيدة ، كاتبة
بارعة ، وهذه الصفات بل الخصائص كانت مما يغلي ثمن الجارية
ويعليه ، ويجعلها مطاوعة مرغوبة محبوبة ، ثم اهداها الرجزي الى الخليفة
المنوكل على الله ، وكانت دار خلافته - كما هو معروف - سامرا ،

وكانت الدار عظيمة فضمة فيها قود القصور ولا سيما القصر
الجعفري المنسوب الى اسمه «جعفر». وكذلك المدينة التي بناها
عند القصر فانها صارت اكبر من سامرا وهي المدينة المتوكلية ،
وإذ كان المتوكل نهى الرعايا عن الحوض في الجداول والمهارة في
المذاهب الدينية والمناظرات في القرآن الكريم المخلوق هو ام قديم ؛
كثير الانصراف الى اللهو والأدب والشعر والغناء واتخاذ الجواري
الادبيات والشاعرات ، والمغنيات في البلاط العباسي نفسه خاصة ،
لان محل الخليفة يجب ان يكون فيه من شواغل الاجسام والارواح
وملاهي النفوس ومزجيات الاوقات . فلم يكن غريباً ان يكون
في البلاط المتوكلي مثل فضل الشاعرة الكاتبة الظرفية ومحبوبة
الشاعرة المطبوعة الجميلة المغنية وان لم يكن غنائها من الطبقة
الاولى . وهاتان الشاعرتان تذكران معاً دائماً ، قال عبد الله بن
المعتمر - وهو من اعلام الشعر والادب - قال لي ابراهيم بن
المهدي : كانت فضل الشاعرة من احسن خلق الله حظاً وافصحهم
كلاماً وابلغهم في مخاطبة واثبتهم في محاوره ، وقال ابن المعتمر
ايضاً : كانت تهاجي الشعراء ويجتمع عندها الادباء ولها في الخلفاء
والملوك مدائح كثيرة .

قال بعض المؤرخين : لما دخلت على المتوكل يوم اهدائها
اليه قال لها : اشاعرة انت يا فضل ؟ قالت : كذا يزعم من
باعني ومن اشتراني يا امير المؤمنين . فضحك المتوكل وادرك رقعة
طبعها ثم قال لها : انشديني من شعرك يا فضل ، فقالت :
استقبل الملك امام الهدى عام ثلاث وثلاثين

خلافة افضت الى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرينا
انا لندرجو يا امام الهدى ان تملك الأمر ثمانينا
لاقدس الله امرءاً لم يقل عند دعائي لك آميناً
فقال المتوكل لعلي بن الجهم السامي الشاعر: - وكان حاضراً
مجلسه - قل بيتاً . وطلب من فضل الشاعرة ان تجيزه فقال
علي : اجيزي يا فضل :

لاذ بها يشتكي اليها فلم يجد عندها ملاذا
فأطرقت هنيئة ثم قالت :

ولم يزل ضارعاً اليها تهطل اجفانه رذاذا
فعاتبوه فزاد عشقاً فمات وجداً فكان ماذا؟

فطرب المتوكل - وحق له ان يطرب - وقال احسنت وحياتي
يا فضل . وامر لها بالقي دينار جائزة لها .

وكان ذلك امتحاناً لها لان النظم في الحال والاجازة على حسب
الطلب - اعني اتمام الشعر الناقص المعنى - يدلان على الملكة
الشعرية وقوة البديهة والقدرة على النظم ، فمن لم تكن له ملكة
ادبية قصر وبان عجزه .

دخلت فضل بذلك الامتحان العسير بلاط المتوكل وصارت
من سيداته إلا انها لم تكن من الجمال على نصيب يجعلها سيدة
السيدات ، وكانت السيدة قبيحة الرائعة الجمال اولى سيدات
البلاط ، وكان شعر فضل بضاعة ادبية تعرض عند الطلب وتضامن
وتحفظ عند كساد السوق .

كنا ذكرنا في ترجمة السيدة قبيحة انها امرت فضل الشاعرة

ان تنظم ابياتاً على حسب هواها ، لتكون وسيلة لها الى ترضي المتوكل بعد اعراضه عنها في حادثة جرت بينهما ، فنظمت قولها :
لا كتمن الذي في القلب من حرق حتى اموت ولم يعلم به الناس
ولا يقال شكاً من كان يعشقه ان الشكاة لمن نهوى هي الباس
ولا ابوح بشيء كنت احكته عند الجلوس اذا ما دارت الكاس
وبعد قتل المتوكل سنة « ٢٤٧ هـ » تفرقت جواريه فمنهن من وجدت في هلاكه بؤساً وحرماً كمحبوبة ومنهن من وجدت فيه خلاصاً وفرجاً مثل فضل فانها اطلقت حبها المزموم وباحت بغرامها المكتوم ، لعاشقها سعيد بن حميد الكاتب المشهور وكان هذا الرجل من أشد الناس بغضاً للعلويين واعراضاً عن أهل البيت وكانت فضل على العكس متشعبة متعصبة لأهل مذهبها تقضي حوائجهم بجاهها ، فتوكت من اجل حبه مذهبها وصدفت عن قديم طريقها وهكذا كان النصر والفوز للحب والغلبة للقلب على اللب والظفر للشرب على المذهب .

وبعد هذا العشق التبيت عاطفة فضل الشعرية واستولت ملكتها الادبية فما في حوافز الادب حافز اقوى من الحب ، وأنت بالبارع من النظم والنثر اللذين جعللا قلبها معروضاً على راحتها فلا كتمان ولا إخفاء ولا مداهنة ولا استحياء ، ولقد ظن معاصروها ان صاحبها سعيد بن حميد كان يكتب لها رقاعها ببلاغته المعروفة ، مع انها كانت اكتب منه وأبلغ وأشعر وآدب ، كيف لا وقد قيل ان سعيد بن حميد كان يغير على نفيس كلام الناس فيجعلها في رسائله ولو قيل لكل جملة من رسائله : ارجعي

الى صاحبك لم يبق له منها شيء . قال ابراهيم بن المهدي : قلت
لسعيد بن حميد ذات يوم : اظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها
وتفيدها وتخرجها فقد اخذت طريقتك في الكلام وسلكت سبيلك .
فقال لي وهو يضحك : ما أخيب ظنك ! ليسها تسلم مني : انني لاأخذ
كلامها ورسائلها ، والله يا أخي لو اخذ افاضل الكتاب وأماثلهم
عنها ما استغنوا عن ذلك .

وكان يحدث بينهما ما يكون بين المتعاشقين من الدلال خوف
المال ونجني الذنوب لاغراء المحبوب ، او لامتحان القلوب ومن
تكلف الهجر لاختبار الصبر ، فقد ذكروا ان سعيد بن حميد كان
ذات يوم في مجلس الحسن بن مخلد الكاتب بسامرا فجاءه الغلام
برقعة فضل الشاعرة تذكر فيها شوقها . فقرأها وضحك .
فقال الحسن بن مخلد : بحياتي عليك ، أقرئينها . فدفعها اليه فقرأها
وضحك وقال : قد وحياتي ملحت فضل ، فأجب وحقى انت
بكلام مليح . فكتب اليها سعيد :

يا واصف الشوق عندي من شواهد قلب يهيم وعين دمعها يكف
والنفس شاهدة بالود عارفة وأنفس الناس بالاهواء تأتلف
فكن على ثقة مني وبينة اني على ثقة من كل ما نصف
وذكر محمد بن السري احد اصحاب سعيد بن حميد قال : ذهبت
الى سعيد وهو في دار الحسن بن مخلد في حاجة لي وبينما كنت
هناك جاءته رقعة فضل الشاعرة وفيها هذان البيتان :

الصبر يقضى والغرام يزيد والدار دانية وانت بعيد

اشكوك ام اشكو اليك فانه لا يستطيع سواهما المجهود
وتحت البيتين تقول « يا ابا عثمان انا في حال التلف ولم تعدني
ولا سألت عن خبري » . قال محمد بن السري : فاخذ سعيد
بيدي ومضينا اليها فسأل عن خبرها فقالت : هوذا أموت وتستريح
مني . فانشأ يقول :

لا مت قبلي بل احيا وانت معاً ولا اعيش الى يوم تموتيننا
لكي نعيش بما نهوى ونأمله ويرغم الله قينا انف واشيننا
حتى اذا قدر الرحمن نيتنا وحن من امرنا ما ليس يعدونا
مثنا جميعاً كغصني بانه ذبلا من بعد ما نضرا واستوسقنا حيننا
ثم السلام علينا في مضاجعتنا حتى نعود الى ميزان مثيننا

السيدة شغب أم المقتدر بالله

ان هذه السيدة من ذوات السير الحافلة بالحوادث والاعمال ، ولم تكن سيرتها بأقل شأنًا من سير كبريات النساء في العالم ، من ملكات ومتحكات ، ومشاركات في السلطان .

كانت السيدة شغب في اول أمرها جارية لاحدى النساء الكبيرات ببغداد ، ثم تملكها الخليفة ابو العباس احمد المعتضد بالله ابن ولي العهد الموفق طليحة ، وكان يقال لها « ناعم » ، لثاني ليال بقين من شهر رمضان سنة ٢٨٣ ، ولدت للمعتضد ابناً سماه « جعفر » ، وهو الذي لقب بالمقتدر بالله حين ولي الخلافة ، ولما ولدته غير المعتضد اسمها وسماها « شغب » ، وكانت ولادتها ولداً ذكراً شغباً وتحريشاً ، بالاضافة الى نساء الخليفة المعتضد ، وتوفي المعتضد عنها في سنة ٢٨٩ ، وولي الخلافة بعده ابنه المكنتي بالله وليث في الخلافة حتى سنة ٢٩٥ ، فتوفي فيها وهو آخر الخلفاء الحازمين في عصر نهضة الدولة العباسية بعد كبوتها الاولى ، وولي الخلافة بعده اخوه ابو الفضل جعفر بن السيدة شغب ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة وشهر واحد وايام ، وكان اصغر من تولى الخلافة من بني العباس ، ولذلك اراد المتلعبون بالخلافة خلعه مرتين فلم يفلحوا ، وفي خلافته ظهر شأن والدته شغب ، وعلا امرها

وتحكمت في الدولة ، ودارت امور الدولة على تدبيرها وتدبير
القهرمانات وغيرهن من النساء ، فأصاها تخطيط كثير وجرها سوء
التدبير الى سوء العاقبة ، كما هو مفصل في كتب التاريخ .

وصارت السيدة شغب في عهد ابنها المقتدر لا تعرف الا بالسيدة ،
فكان القائل اذا قال « امرت السيدة » علم انها شغب ام المقتدر ،
وكذلك ورد اسمها في التواريخ ، واتخذت لنفسها ديواناً يقوم
بأموره كاتب مجري مجرى الوزير ، وأول كاتب ولته ديوانها احمد
ابن العباس بن الحسن ، وكان ابوه العباس بن الحسن وزير المقتدر
وجعلت لنفسها قهرمانة أي حاكمة ، وبعد اشهر خلع ابنها المقتدر ،
وبويع بالخلافة عبدالله بن المعتز الاديب الشاعر المشهور ، إلا أن
حزب المقتدر لم يذعنوا لهذا الخلع ، وقاتلوا حزب عبدالله بن المعتز
فشتنهم ، لأنهم لم يكن لهم اموال يجذبون بها القلوب ، ويصلحون
بها الامور على الضد من حزب المقتدر فان معهم يوسف بن انبغاس
وهارون بن عمران اليهوديين الصيرفيين وحزب المال هم الغالبون ،
وبقي المقتدر في الخلافة وقتل عبدالله بن المعتز ، وتعاضل حكم
السيدة شغب في الدولة ، وكان لها اخ اسمه « غريب » ويعرف
بغريب الحال اي خال المقتدر ، فتمكن في الدولة ايضاً ، وصار
ابنه هارون من أعظم قادة الجيوش فيها .

وفي سنة ٣٠٦ هـ أمرت السيدة شغب قهرمانتها واسمها مثل أن
تجلس بالرصافة قرب مدفن الامام أبي حنيفة ، وتنظر في مظالم
الناس وشكاياتهم من الحكام والمتولين ، وجعلت ذلك في كل
جمعة ، فأنكر الناس ان تحكم بينهم امرأة ، واستبشعوا فعل

السيدة شغب وعابوه عليها ، ولكن ثل القهرمانة احضرت معها
القاضي ، فكانت تستشير في الاحكام ، فسار امرها على سداد
ولاستقامة ، وانتفع بذلك المظلومون ، وترك الناس استنكارهم
وطعنهم ، وأيقنوا ان العدل هو المنشود لا الذي يقيمه من
ذكر واتشى وابيض واسود .

وفي هذه السنة نفسها - اعني سنة ٣٠٦ في المحرم منها أنشأت
السيدة شغب مارستاناً أي مستشفى بسوق يحيى بالرصافة ، وكان
سوق يحيى على شط دجلة على مقربة من المحلة المعروفة اليوم بمحلة
السفينة في الاعظمية ، وجعلت امره الى الحكيم سنان بن ثابت
الصابي أي الصبي ، فجلس فيه ورتب الاطباء الذين يعالجون فيه
مرضى الناس ، وكانت النفقة عليه كل شهر ستمائة دينار ، وأشار
سنان الصابي على المقتدر ان يتخذ مارستاناً يوسم باسمه ، فأنشأ
مارستاناً بباب الشام فعرف بالمارستان المقتدري ، وكانت محلة
باب الشام غربي الشالجية ، وكانت نفقته الشهرية مائتي دينار ،
ولم يكن احسان السيدة شغب محدوداً بثل هذه الامور النافعة ،
بل كانت تصدق كثيراً ونجس الاوقاف على المصالح الخيرية ،
وتواظب على مصالح الحجاج وتبعث مع قافلتهم بخزانة شراب
للمرضى ، وترسل الاطباء لمعالجتهم ، وتأمّر باصلاح الاحواض في
الطريق ، وكان يرد خزائنها من املاكها مليون دينار في كل سنة ،
والاحسان وان كان من السياسة فانه جزء ضئيل منها .

وقد حاولت هذه السيدة في سنة ٣١٦ ان تقتل مؤسساً المظفر
مقدم الجيوش العباسية ، فاتصل به انها قد وضعت له جماعة ،

ليفتكوا به اذا دخل دار الخلافة ، وهي التي قلنا ان ارضها هي
ارض سوق المستنصر الحالي ، فاستوحش مؤنس المظفر واحتوس ،
وطلب من الخليفة الخروج الى الشغور وترك الاقامة ببغداد ، فأذن له
الخليفة ولكن حالت بينه وبين ذلك الحوادث ، وتغير قلبه بعد
ذلك ، حتى بلغ به التغير ان حارب الخليفة وقتله - كما هو معروف
في التاريخ - ولما اراد المقتدر ان يخرج في سنة ٣٢٠ الى حرب
مؤنس المظفر بالشامية وهي محلة الصليخ الحالية ، جزعت أمه
وجهدت به ألا يخرج وكشفت عن ثدييها - على عادة النساء في
المصائب - وبكت ، فغلب القضاء ونزل البلاء ، وخرج المقتدر
فقتل هناك وولي الخلافة بعده اخوه ابو منصور محمد بن احمد
المعتضد ولقب بالقاهر بالله .

قيل : لما اراد المقتدر الخروج الى حرب مؤنس المظفر قال
لأمه شغب : « قد ترين ما وقعت فيه وليس معي دينار ولا درهم ،
ولا بد من مال يكون معي ، فأعينيني بما معك من المال ،
فقالت له : « قد اخذت مني يوم سار القرمطي الى بغداد ثلاثة
آلاف الف دينار - اي ثلاثة ملايين - وما بقيت لي بعدها ذخيرة
الا ما ترى » واحضرت له خمسين الف دينار ، فقال المقتدر :
« واي شيء تغني عني هذه الدنانير ، واي مقام تقوم لي هذه
الجسود الفأ في عظيم ما استقبله ؟ » ثم قال لها « اما انا فخارج
كيف كنت وعلى ما استطعت ، ولعلي اقتل فاستريح ، ولكن
الشأن فيمن تبقى بعدي ، ويقبض عليها وتعذب ، وتعلق في هذه
الشجرة تعلية دراجية » وأشار الى شجرة كانت في بعض دور

الحلافة . قالت ذلفاء المنجمة وكانت متصلة بالمقتدر ونسائه :
« فوالله لقد قبض على شغب وعلقت في تلك الشجرة بعينها » ،
على ان السيدة شغب لم تكن كاذبة فيما قالت لابنها ، ولم تكن
كالسيدة قبيصة ، اعانت ببخلها على قتل ابنها المعتز وكان الخليفة
القاهر بالله العباسي هو الذي سامها سوء العذاب وطالبها بالاموال ،
وكان قد قررها بالرفق والتهديد ، فحلفت له انها لا مال عندها
ولا جوهر ، الا صناديق فيها ثياب ومصاغ وطيب ، وذكر
انها لو كان عندها مال ما اسلمت ابنها للقتل ، فضربها بيده
وعلقها منكسة برجل واحدة على شجرة ، وكان بولها يجري على
وجهها ، - ولا حياء في التاريخ - ولم يجد عندها غير ما اقوت به
وقيمة « ١٣٠ » الف دينار . وذلك التعذيب يدل على وحشية في
القاهر بالله وفظاظة نفس وغلظة قلب ، فقالت له « لو كان معي
مال ما جرى في امرنا من الخلل ما آل الى جلوسك حتى
تعاقبني هذه العقوبة ، وانا امك في كتاب الله وقد خلصتك من
ابني في الدفعة الاولى » ، تشير الى محاولة حاولها قواد الجيش
سنة ٣١٦ خلع المقتدر وتولية القاهر ولكن اعمالهم حبطت .

ثم احضر القاهر اليها الشهود ، ليشهدوا عليها بانها وكلته في
بيع املاكها ، ووقفت هي وراء الباب ، فلم يقنع الشهود بذلك
بل ارادوا رؤيتها بأعينهم ، على وفق ما اوجبه الشريعة ، فأروها
وكلموها قال احدهم : رأينا عجوزاً دقيقة الجسم سمراء اللون
الى البياض والصفرة ، عليها اثر ضر شديد ، وكانت قبل ذلك قد
مرضت وفسد مزاجها ، ثم اصابها مصيبة قتل ابنها وبقائه بالعرء

غير مدفون ، وامتنعت من الاكل والشرب حتى كادت تموت ،
فما زالوا يرفقون بها حتى اكلت كسرة خبز بملح ، وكان الامير
علي بن يلبق قد التزم جانبها ، فطالب القاهر بالله بان يسلم ما
بقي في يده من متاع السيدة شغب فسلمه اليه وباعه ، ونقل
السيدة شغب الى بيت والدته ، فبقيت مكرومة المشوي مكرومة
عشرة ايام ثم توفيت ، وكانت وفاتها بعد قتل ابنها بسبعة اشهر
وثمانية ايام ، ودفنت بالرصافة بالجانب الشرقي من بغداد .
ولهذه السيدة اخبار كثيرة جمعت بين الغرابة والطرافة ،
وكانت في قضية الحسين بن منصور الحلاج الشهيرة ، منعت ابنها
المقتدر من الاذن بقتله ، واخرته اياماً خوفاً على ابنها ولكنها لم
تسقط تخليص الحلاج من القتل ، لانه ظهر في ايام القرامطة
الزنادقة ومن وضع نفسه في موضع الريبة والتهمة فلا يلومن
الا نفسه .

السيدة قطر الندى

زوجة الخليفة المعتضد بالله العباسي

لقد اشتهرت من سيدات البلاط العباسي ، باسم قطر الندى سيدتان ، احدهما قطر الندى بنت خمارويه امير مصر ، وقيل اسمها « أسماء » ولقبها قطر الندى ، والأخرى قطر الندى أم الخليفة القائم بامر الله واسمها « علم » وموضوعنا هذا مقصور على قطر الندى بنت خمارويه ، كما ذكرنا في عنوان الحديث . إن هذه السيدة هي حفيدة احمد بن طولون القائد التركي ، الذي أسس الدولة الطولونية بمصر ، وقطعها من مملكة بني العباس واستقل فيها ، وابوها خمارويه بن احمد بن طولون المذكور ولد بالعراق سنة « ٢٥٠ هـ » ، وأخذته أبوه معه الى مصر ونشأ هناك وتزوج فولدت له قطر الندى ، وكانت موصوفة بفرط الجمال ووفرة العقل وحسن الادب وكمال الخلق ، وكان جدها احمد بن طولون يعد خارجياً خارجاً على الدولة العباسية ، القائمة باسم الموفق طلمجة بن المتوكل على الله وهو ولي عهد اخيه المعتمد على الله الخليفة العباسي ، ولم يكن للخليفة إلا الاسم والوسم ، ولما فرغ بنو العباس من أمر علي بن محمد صاحب الزنج الثائر - كان - في البصرة ونواحيها المدعي انه الامام القائم بالحق الموعود به ، وجهوا جيوشهم نحو الأطراف العاصية كمصر وغيرها ، فخشي خمارويه أن تطول الحروب والكروب بينه وبين بني العباس ،

فبادر الى المعتضد بالله أبي العباس احمد الخليفة الجديد ، بالهدايا
 والتحف العظيمة ، وأرسل بها مع تاجر من تجار بغداد الكبار
 إذ ذاك ، وهو الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص ،
 ووصل هذا الى بغداد سنة ٢٧٩ وكان معه من الهدايا ، عشرون
 حملاً من الدنانير على بغال ، وعشرة غلمان من الخدم أي المماليك
 وصندوقان فيها قماش فاخر ، وعشرون رجلاً على عشرين فرساً
 نجيباً ، بسروج محلاة بحلية فضة كثيرة ، ومعهم حراب فضة ،
 وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة ، وسبع عشرة دابة بسروج
 ولحم ، منها خمسة بذهب والباقي بفضة ، وسبع وثلاثون دابة
 بجلال مبرقشة ، وخمسة أبغل فارهة بسروج ولحم ، وزرافة ،
 وأرسل اليه برسالة يطلب فيها الى المعتضد ، ان يزوج ابنته
 قطر الندى من ابن الخليفة علي بن المعتضد ، وهو الذي ولي
 الخلافة بعدئذ ولقب بالملكقي بالله ، وكان جميل الصورة ايضاً ،
 وفي ذلك قال الشاعر :

قايت بين جهاها وفعالها فاذا الملاحه بالخيانة لا تقي
 والله لا كلمتها ولو انما كالشمس او كالبدر او كالملكقي
 وكان من المؤلف المعتاد بين العظماء في ذلك الزمان أن
 يخطب الأمير رجلاً عظيماً لابلته كما فعل الأمير خمارويه ، فقال
 المعتضد للرسول « إنما أراد خمارويه ان يتشرف بنا وانا ازيد في
 تشريفه : انا اتزوجها ، وكان المعتضد كثير الميل الى النساء
 وكأنه سمع بجمال قطر الندى فأرادها لنفسه ، وكان في تلك
 الايام قد خرج من بغداد الى مدينة بلد التي فوق الموصل ،

فبعث من هناك بصداق قطر الندى إلى أبيها خمارويه وهو مليون درهم ، مع شيء كثير من المتاع والطيب وتحف الصين والهند والعراق ، وبعث إلى خمارويه خاصة كيسان من الجواهر المثلثين فيه در وياقوت ونواع من الجواهر ووشاح وتاج واكليل وقلنسوة ، وكان وصول ذلك إلى مصر سنة « ٢٨٠ هـ » .

وحينئذ أخذ خمارويه في تجهيز ابنته قطر الندى بجهاز يليق بعظمة الخلافة العباسية ، وكان من جملة الجهاز دكة من ذهب مركبة من أربع قطع ، عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جواهر عظيمة القيمة ، ومائة هاون من الذهب وقيل ألف هاون ، وأشياء كثيرة بحيث أن الفضلة التي بقيت من ثمن الجهاز كانت أربعمائة ألف دينار ، فوهبها خمارويه لابن الجصاص وقيل ، بل قال له : لعمل في العراق بما يحتاج إليه شيئاً ليس عندنا ، فاشتره لها بهذا المبلغ ، فلم يشتري ابن الجصاص شيئاً والطّ المبلغ وأكله . ولما فرغ الأمير من جهاز ابنته قطر الندى ، أمر بأن يجعل لها في الطريق بين مصر والعراق في كل منزلة من منازل السفر ، قصر كامل وإن يكون في هذه القصور ما تستعمله على حسب عاداتها في بيت أبيها ، وفي هذا الخبر شيء من المبالغة ، والظاهر أنهم أرادوا بالقصور خياماً فيها المنام والطعام والشراب والمستراح والمغتسل ، فكانت إذا وصلت إلى منزلة من المنازل وجدت فيها ما يسد حاجتها ، قال أحد المؤرخين : « وكانت قطر الندى في مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد المسافة كأنها في قصر أبيها ، وهذه مبالغة كما قلنا ،

ومشهم من زعم ان المعتضد تزوجها ليفقر أباهما ويقلل امواله ،
فلا يستطيع أن يبني دولة قوية ، على ان المعتضد استوط على
خارويه ان يحمل اليه من خراج مصر مائتي الف دينار في كل
سنة ، وهذا مقدار قليل على من تولى مصر فانها معدن الاموال .
وكان مع قطر الندي عمها شيبان بن احمد بن طولون ، وخرجت
تشيعة من الفسطاط عمتها العباسة بنت احمد بن طولون ، فلما بلغت
آخر الاعمال المصرية من جهة الشام ودعتها ورجعت الى مصر .
وذكر المؤرخون ان ابن الجصاص التاجر اخفى جملة صالحة
من جواهر قطر الندي ، واعلمها ان ذلك يبقى وديعة عنده الى
وقت حاجتها اليه ، ولكنه نام على الوديعة حتى وفاة قطر الندي ،
وكثر بها غناه وثروته ، إلا ان ذلك سبب له محناً ونكبات في
ايام الخليفة المقتدر ، فقد قبض عليه واخذت منه اموال كثيرة
بهذا السبب وبغيره من الاسباب .

ودخل موكب قطر الندي بغداد يوم الاحد لليلتين خلتا من
المحرم سنة ٢٨٢ ، وانزلت هي في دار صاعد بن مخلد ، وكانت
في الجانب الشرقي على الشط فوق ارض المجيدية ، ولا نعلم
موقعها على التحقيق ، وكان الخليفة المعتضد يومذاك غائباً ايضاً
بالموصل ، ولأربع ليالٍ خلون من شهر ربيع الآخر ، نقلت
قطر الندي من دار صاعد الى قصر المعتضد بالله قرب ارض
الحكمة الشرعية الحالية ، وكان انتقلها في سفينة تعرف إذ ذاك
بالخرافة ، ومعها عدة حراقات وشذوات ، والشذوات هي سفن
صغيرة ، وامر المعتضد ان يتأذى بجاني بغداد ، ان لا يعبر احد

في دجلة يوم الاحد ، وأمر باغلاق ابواب الدروب التي تفضي الى الشط ، ومد على كل شارع نافذ الى دجلة شراع ، ومنع الناس الساكنين على جانبي دجلة ان يظهروا في اجنحة دورهم اي بالكوناتها ، لتلا يروا قطر الندى ، وهذا امر غريب لا يخلو من التجبر . وسارت حراقة قطر الندى في دجلة بعد العشاء تحف بها الحراقات ، وقدامها الشدوات ، حتى وصلت الى قصر المعتضد بالله فأخرجت اليه ، وأقامت فيه يوم الاثنين ، وزفت اليه يوم الثلاثاء خمس ليال خلون من شهر ربيع الاول من السنة المذكورة - أعني سنة ٢٨٢ - ، وفي ذلك قال ابن الرومي :

يا سيد العرب الذي زفت له باليمن والبركات سيدة العجم
اسعد بها لسعودها بك انها ظفرت بما فوق المطالب والهمم
ظفرت بماء ناظرها بهجة وضميرها نبلا وكفيها كرم
شمس الضحى زفت الى بدر الدجى فتكشفت بها عن الدنيا ظلم
وفي آخر السنة التي زفت فيها قطر الندى قتل ابوها خمارويه
بصر ، فقد ذبحه على فراشه بعض خدمه ، وكان المعتضد قد
بعث مع ابن الجصاص بهدايا الى خمارويه وأودعه رسالة اليه ،
فخرج ابن الجصاص من بغداد فلما بلغ سامرا وصل الى المعتضد
خبر موت خمارويه ، فكتب الى ابن الجصاص يأمره بالرجوع ،
فرجع الى بغداد واعاد معه الهدايا والرسالة .

ولبت السيدة قطر الندى مع زوجها المعتضد حتى سنة ٢٨٧ ،
ولم تزد مدتها معه على خمس سنوات ، فقد توفيت في شبها ببغداد
لسبع ليال خلون من رجب من السنة المذكورة . ودفنت داخل

قصر الرصافة وهو القصر الذي بناه المهدي العباسي ، وكانت
الرصافة مجاورة لمدفن الامام ابي حنيفة - كما قلناه مراراً - .
وبما جاء من الأخبار في ادب السيدة قطر الندى ، ان المعتضد
خلاها يوماً في مجلس افرده لها ، ولم يكن فيه أحد سواها ،
فأخذه النعاس فنام على فخذه ، فلما استيقظ وأغفى وضعت
رأسه على وسادة وخرجت من المجلس الى ساحة القصر ، فاستيقظ
المعتضد فلم يجدها فاستشاط غيظاً وناداه فاجابته عن قرب ،
فقال لها : ألم أدخل بك اكراماً لك ، ألم ادفع اليك مهبتي
دون سائر حظاياي ، فتضعين رأسي على وسادة وتذهبين ؟ !
ف قالت له : « يا امير المؤمنين ما جعلت قدر ما أنعمت علي ،
ولكن فيما أدبني به ابي ان قال لي : لا تنامي مع الجالسين
ولا تجلسي مع النائنين » .

ولم تترك السيدة قطر الندى اثرأ في العراق يبعث الناس على
تذكرها ، ولا تدخلت في سياسة الدولة حتى يذكرها التاريخ
السياسي ، والظاهر لنا انها على اشتهار جمالها وذبوع صباحتها
وملاحظتها ، لم تستطع امتلاك قلب المعتضد بالله ، لكثرة الجواري
الجميلات في ذلكم الزمان ولا سيما دُريرة جارية المعتضد ، التي
اشتهر عنه أنه كان يحبها حباً جماً مفرطاً ، وكانت زواج
قطر الندى سياسياً لا طبيعياً اي لا دخل للقلب فيه ، وربما كانت
تأمل - وهو الحق - ان يتزوجها علي بن المعتضد تزوج الشاب
بالشابة ، فاستحوذت عليها اناية المعتضد ، وجعلتها تودع الدنيا
غير آسفة عليها ، وهي لم تتجاوز من العمر عشرين سنة .

خديجة خاتون السلجوقية

زوجة الخليفة القائم بأمر الله

كان اسم هذه السيدة « أرسلان خاتون » ، فاضافت اليه اسم « خديجة » تيمناً وتبركاً بهذا الاسم الكريم ، وأبوها داود جعفري بك هو آخر السلطان طغرل بك مؤسس الدولة السلجوقية ، وكان السبب في تزويجها بالخليفة القائم بأمر الله ، رغبة عنها طغرل بك في توثيق الصلة بين البيت السلجوقي والبيت العباسي ، بعد أن استولى على العراق وأزال الدولة البويهية المتداعية الواهية ، وازدفر بشؤون الخلافة العباسية وبأشرها نيابة عن الخليفة . وكان عقد الزواج في يوم الخميس لثمان بقين من المحرم سنة ٤٨٨ هـ ، وقد حضر العقد قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي بن الدامغاني المشهور ، وأبو الحسن الماوردي البصري وكان أفضى القضاة ، ورتبة أفضى القضاة أقل من رتبة قاضي القضاة ، وحضر كذلك عميد الملك منصور بن محمد الكندري وزير طغرل بك ، ونقيب النقباء أبو علي بن تمام الزينبي وعدنان بن الشريف الرضي الشاعر المشهور ، والأمير تاج الملوك هزارسب بن بنصير بن عياض الكردي ، والأمير أبو علي بن الملك كاليبجار البويهي ، والأمير ابن أبي الشوك الكردي ، وعدة أمراء من الأتراك ، ووزير

الخليفة ابو القاسم علي بن الحسن الملقب رئيس الرؤساء المعروف بابن المسلمة ، وهو الذي خطب خطبة الزواج ثم قال مخاطباً الخليفة : « إن رأى سيدنا ومولانا امير المؤمنين ان ينعم بالقبول فعل » ، فقال الخليفة : « قد قبلنا هذا النكاح بهذا الصداق » . وكان الصداق « مائة الف دينار » ، وقد ظل هذا الصداق مضرب الامثال ، وبدعة للجهال من ارباب الاموال ، وهو اعظم صداق واعلاه في تاريخ الدولة الاسلامية ، ولقد ذكرنا في اخبار السيدات اللاتي ذكرنا تراجمهن ، ان السيدة زبيدة بنت المقتفي لأمر الله وفاطمة بنت محمد بن ملكشاه السلاجقية ، والسيدة رابعة بنت ولي العهد ابي العباس احمد بن المستعصم بالله ، كان مبلغ صداق كل منهن « مائة الف دينار » ، وكان ذلك اقتداءً بالسيدة ارسلان خاتون - أعني خديجة السلاجقية - التي حديثنا الليلة عنها .

وفي اوائل شعبان من السنة المذكورة - أعني سنة ٤٤٨ ، مضى الوزير ابو القاسم ابن المسلمة ، الى طغرل بك بدار المملكة وكانت في محلة العيواضية ، كما قلنا غير مرة ، وقال له : « امير المؤمنين يقول لك : ان الله تعالى يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها ، وقد اذن في نقل الوديعة الكريمة الى الدار العزيزة » ، فقال : « السمع والطاعة للأوامر الشريفة » ، وكان قد نقل من دار المملكة الى دار الخلافة العباسية ، وكانت تحت شارع السموع ، كثير من المال والجواهر واليواقيت واواني الذهب والفضة ، والجنايب والبغال والعماريات وهي الكجارات ، ونقل مع ذلك كله ثمانون جارية أبقاراً مملوكات ، عليهن اقبية الديباج والمناطق

المجوهرات وتحتهن الخيول المسومة والبغال الرومية ، وست عماريات
على البغال ، وعلى قبابها جواهر وغير ذلك ، هذا بعض الجواهر ،
والحقيقة ان هذه السيدة كانت موعودة ان تزوج بذخيرة الدين
محمد بن القائم بأمر الله ، فلما توفي وانقطع الأمل بموته عدل
عنها الى القائم بأمر الله والد ذخيرة الدين ، لينال المصاهرة التي
يتجمل بها على الملوك وينال بها غير ذلك .

ومضت السيدة قطر الندي والددة الخليفة من دار الخلافة الى
دار المملكة في الزياض على دجلة ، وارسلت الزياض عند دار
المملكة ، وارسلت زوجة طغرل بك التوتخان في نقل خديجة
خاتون الى دار الخلافة ، فأرسلت بها اليها من دون ان تخرج
اليها اما تكبراً ، واما أنفة من هذا الزواج بين امرأة شابة
وشيوخ ، وهو خلاف قانون الخلقة ، فأنحدرت الخليفة
ليلاً الى باب الغربية ، اي عند شريعة المصبغة الحالية وقد ضربت
على دجلة سرادقات لتسير تحتها ، فدخلت دار الخلافة من باب
الغربية المذكور اي باب سوق المستنصر الحالي ، وكان مع الخاتون
عميد الملك الكندري وزير الامبراطورية السلجوقية ، وقد ذكرناه ،
فحضر بين يدي الخليفة القائم بأمر الله وقبل الارض وقال :
« الخادم ركن الدين طغرل بك قد امثل المراسم العالية في حمل
الوديعة وسأل فيها كرم الملاحظة واجتناب الضيعة » ، ثم انصرف .
وأدخلت خديجة ارسلان خاتون على الخليفة القائم بأمر الله
فقبلت الارض مراراً ، فأدناها اليه وقرعها منه وأجلسها الى
جنبه ، وطرح عليها فرجية وهي نوع من ملابس يطرح على

الكتفين والظهر ، وكانت الفرجية منظومة بالذهب ، ووضع على رأسها تاجاً مرصعاً بالجواهر ، واعطاها من الغد مائة ثوب من الديباج ومن قصب الذهب ، وطاسة من ذهب قد نبت فيها الباقوت والفيروزج ، وعقدت من اللؤلؤ له قيمة عظيمة ، وافرد لها من الاقطاع اثني عشر الف دينار في كل سنة ، تكون اربعة وعشرين الف دينار من دفانير اليوم .

وبقيت خديجة خاتون في دار الخلافة العباسية ، ولقيت بالجهة القائمة كناية عن السيدة القائمة ، وبعد زواجها بسنتين ، حدثت بالخلافة العباسية الحادثة الكبيرة والرزية العظيمة ، من استيلاء أبي الحارث ارسلان البساسيري القائد التركي سنة ٤٥٠ ، على بغداد واكثر العراق ، وقطعه خطبة بني العباس ، وخطبته للمستنصر بالله الخليفة العلوي الفاطمي على منابر بغداد ونواحيها ، فظفر فيمن ظفر به هذا القائد بالسيدة خديجة خاتون وكانت أموالها قد نهبت فالزمها واحترمها وسلمها إلى أبي عبدالله بن جرادة ، أحد أثرياء بغداد الكبار وتجارها إذ ذاك ، ليقوم بخدمتها ، وكان ابن جرادة المذكور قد ضمن لعلم الدين قريش بن بدران العقيلي امير بني عقيل أي عرب عكيل الحاليين ، وكان مع ارسلان البساسيري ، عشرة آلاف دينار ، ليحفظ له داره ومن التجأ اليها من نهب الجند الفاتحين وسوء سيرتهم ، فكانت هذه الحادثة بحنة كبيرة لخديجة خاتون ، فقد شهدت إسقاط الخلافة العباسية ونفي القائم بأمر الله إلى حديثة عانة ، وحدثت في السنة

نفسها وفاة والدها داود جعفري بك بخراسان ، فاشتدت مصيبتها وعظمت .

ولما أوصد أبو المعالي علم الدين قريش بن بدران أمير عقيل من بغداد إلى تكريت ، في آخر الحرم من سنة ٤٥٠ ، وذلك بعد نهب المدينة أخذ معه خديجة خاتون معزة مكرمة ، ثم أرسل بها إلى عمها طغرل بك مع رسول اسمه « نجدة » ، وأوصبه رسالة إلى السلطان المذكور يعده فيها أن يرد الخليفة القائم بأمر الله ، من حديقة عانة إلى عاصمة ملكه بغداد ويطلب الزلفى عنده ، وكان إرسال قريش بالخاتون إلى عمها بأمر أبي الحارث ارسلان ، فإنه بعث إليه يشير عليه بأن ينفذ ارسلان خاتون إلى السلطان طغرل بك ، ولما وصلت خديجة خاتون إلى عمها أرسلت إلى زوجها الخليفة القائم بأمر الله ، أربعين ثوباً أنواعاً وعشر دسوت من الثياب وخمس دسوت مخيطة ، وعشرة آلاف دينار ، لأن حاله قد تضعفت بعد نفيه إلى حديقة عانة ، وليست ارسلان خاتون بعد هذه الحادثة مع عمها طغرل بك إلى سنة ٤٥٣ ، ولكنها كانت تتفقد أحوال زوجها الخليفة القائم بأمر الله على عاداتها ، فإنه لما أعيد إلى بغداد من حديقة عانة بعثت إليه مع عمها طغرل بك باثنتي عشرة حبة من اللؤلؤ الكبار ، وطلبت إلى عمها أن يقول له : « ارسلان خاتون تخدم أمير المؤمنين وتساله أن يسبح بهذه السبحة » ، فقبلها الخليفة بشاكراً .

وفي سنة ٤٥٢ ، توفيت آلتون خاتون زوجة طغرل بك ، وكانت عاقلة سديدة الرأي وكان السلطان يفوض أمره إليها ،

على عادة الاتراك في تعظيم نسائهم من قديم الزمان ، وكانت قد
أوصته قبل وفاتها بأن يتزوج ابنة الخليفة القائم ، لينال شرف
الدنيا والآخرة ، وأوصت بجميع ما لها لبنت الخليفة المنوية خطبتها
المزعم زواجها ، وهذا من عجيب اخبار النساء في الاستقامة
والصلاح ، وأراد طغرل بك ان ينفذ وصية زوجته آلتون خاتون ،
فأرسل رسولا الى الخليفة القائم بأمر الله يخاطب اليه السيدة ابنته ،
واتفق ان وصل الى طغرل بك رسول من الخليفة حملة رسالة
تتضمن المطالبة باعادة ارسال خاتون اليه ، فأرسلها طغرل بك اليه ،
ورأى في هذه الاجابة تسهلا لزواجه بابنة الخليفة ، ولكن الخليفة
لما علم بطلب السلطان ثقل عليه ذلك واتزعج منه ، وطال الكلام
بين السلطنة والخلافة - على ما سندكره في محله من ترجمة السيدة
ابنة القائم بأمر الله - .

وفي شهر ربيع الآخر من سنة ٤٥٣ ، قدمت ارسال خاتون
دار الخلافة ومعها الوزير عميد الملك الكندري ومعها الصداق والجهاز
لابنة الخليفة ، وقيل كان قدومها في جمادى الاولى ، فامتنع الخليفة من
ذلك وأنكر الطلب كل الانكار ، فلما بلغ طغرل بك ذلك ارسل الى
بغداد يأمر وزيره الكندري المذكور ، بنقل ارسال خاتون من دار
الخلافة الى دار المملكة جزاء بما رد الخليفة طلبه وكفاء له ، ولا سيما
بعد ان خاطبته ارسال خاتون في ذلك فلم يزد الا إباء . ثم كتب
طغرل بك كتابا الى ارسال خاتون ، يستعجلها في ان تترك بغداد
ويتضمن اشتياقا اليها وإيثارا لمشاهدتها ، ورسم لها فيه المسير اليه
وضيق العذر عليها في التأخر ، فامتنع الخليفة من ذلك ، ثم علم ان
سبب ذلك اقامته على الامتناع من تزويج ابنته بطغرل بك .

وفي سنة ٤٥٤ ، اجبر الخليفة القائم بأمر الله على ان يزوج ابنته بالسultan طغرل بك ، وجاء رسول من طغرل بك الى ارسلان خاتون ، ومعه اشياء بعث بها السلطان الى الخليفة فاوصلتها اليه ، ثم قدم طغرل بك بغداد فزفت اليه السيدة بنت الخليفة ومضت معها ارسلان خاتون وبعث معها طغرل بك بعقدين فاخرين ، وقطعة ياقوت حمراء كبيرة ، وخسرواني ذهب ، والظاهر ان الخليفة القائم بأمر الله لم يكن له هم بالنساء ، اما لكثرة المصائب التي قاساها واما لامر آخر كالزهد والاعتزال ، فان ارسلان خاتون كانت تشكو من اطراحه لها وانه لم يقربها منذ اتصل بها ، فحمل ذلك عمها طغرل بك على ان يستأذن لها الخليفة في ان تسير معه وتبقى مدة سنة اشهر ، فأبى الخليفة ذلك ، وأصرّ عمها على ذلك محتجاً بانها مطرحة معزوف عنها ، فسافرت معه .

وتوفي السلطان طغرل بك سنة ٤٥٤ ، وارسلان خاتون مع اهلها ، وفي شوال من سنة ٤٥٨ ، انفذ الخليفة القائم بأمر الله خادماً من خواص الخدم الى السلطان ألب أرسلان ابن اخي طغرل بك وهو اخو ارسلان خاتون ، للتهنئة بسلامته في غزوة غزاها الروم ، وللخطاب في رجوع زوجته الخاتون الى بغداد ، فقد طال غيبتها . وفي ربيع الآخر من السنة ، ورد الخبر بعودتها الى بغداد ، وفي جمادى الآخرة دخلت بغداد مع الخادم المرسل اليها ، وخرج اهل بغداد لتلقيها على فرسخ واحد من المدينة ، وخرج الوزير فخر الدولة محمد بن محمد بن جبير لاستقبالها .

وبقيت ارسلان خاتون في دار الخلافة العباسية حتى سنة

٤٦٥ ، ففي هذه السنة خرجت من بغداد الى الري ، وانقطعت
اخبارها في التواريخ التي تحت يدينا ، وهي اول الخواتين بدار
الخلافة العباسية ، وقد كررت التواريخ ذكرها ، لبلوغ مهرها
مائة الف دينار ، ولم يكن لها من المآثر ما تكون به قدوة
للنساء ، الا ان اسمها مقرون باعظم الاحداث في الدولة العباسية ،
والتاريخ الصحيح لم يخل من المرأة قط ولن يخلو منها ابداً .

السيدة بنت القائم بأمر الله

زوجة السلطان طغرل بك السلجوقي

حديث هذه السيدة الكريمة يأكل الاحاديث ، ويبعث على العجب ويحدو على الاستغراب ، فهي العذراء المتروجة والمتروجة العذراء ، ولقد ألمعنا اليها بالقول عدة مرات في التواجم السابقة ، وها هنا تفصيل القول في سيرتها واخبارها .

ذكرنا فيما سلف من سير سيدات البلاط العباسي ، ان التونخان زوجة السلطان طغرل بك السلجوقي توفيت سنة ٤٥٢ هـ ، وكانت في ساعة احتضارها وانتقلها الى دار قرارها ، قالت لزوجها : « اجتهد في ان تتزوج بابنة الخليفة القائم بأمر الله ، فتحصل لك الوصلة بينك وبين بني العباس ، لتنال شرف الآخرة بعد ان نلت شرف الدنيا » . واوصت بجميع ما لها لبنت القائم المحضوض على زواجها ، المثار عزم السلطان على خطبتها ، وكانت وفاة التونخان بمدينة جرجان من بلاد ايران ، فحزن السلطان طغرل بك عليها حزناً عظيماً ، وحمل تابوتها معه الى مدينة الري فدفنها فيها ، وعزم على تحقيق اقتراحها ، والسعي في الزواج بابنة الخليفة القائم بأمر الله ، واتفق ان الخليفة ارسل الى طغرل بك قهرمانته واسمها

صلف ، وخادمه الخاص موفقا ، مؤسس المدرسة الموفقية ببغداد ،
 ليحتملا الى بغداد زوجته خديجة ارسلان خاتون بنت داود جعفري
 السلجوقي ، فعادا الى بغداد بغير شيء ، وجاء معها القاضي ابو يحيى
 سعد بن صاعد قاضي الري ، برسالة من طغرل بك الى الخليفة ،
 تتضمن خطبة السيدة ابنته ، قيل ان وزير طغرل بك عميد الملك
 منصور بن محمد الكندري وقهرمانه الخليفة صلف أطعما طغرل بك
 في امكان الزواج ، فلما اطلع الخليفة على الطالب ثقل عليه جدا ،
 وانزعج منه ، فتكلم القاضي ابو يحيى سعد بن صاعد في بيت النبوة
 من دار الخلافة ، كلاماً يشبه التهديد وانه ان لم يجب الخليفة
 الى ذلك ساء ما بينهما ، فقال الخليفة : « هذا الزواج لم تجر به العادة
 لأحد من الخلفاء ، وركن الدين طغرل بك هو عضو الدولة وركنها ،
 وهو المحامي عنها والمأجور لكل اذى منها ، وما يجوز له ان
 يسومنا هذا ، ويطالبنا به » ، ثم اجاب الى الخطبة اجابة خلطها
 بكثرة الاقتراحات ظنا منه ان ذلك يبطل اقامها ، ويحمل طغرل بك
 على تركها ، فمن اقتراحاته ان تسلم اليه مدينة واسط ، وتعطى
 ابنته جميع ما كان لآلئوخان من الاملاك والاقطاع والرسوم في
 سائر الاصقاع ، فضلاً عن المال الذي تركته ، مع ثلاثائة ألف
 دينار من الذهب العين برسم المهر ، وان يكون مقام السلطان
 ببغداد دائما ، وكان العميد ابو الفتح المظفر بن الحسين والي بغداد
 وعميد العراق من قبل السلطان حاضراً ، فقال : « اما الملتبس
 فمجاب اليه من المهر وغيره من جهتي عن السلطان ، ولو كان
 اضعاف المبلغ ، فان امضيت الامر وعقدتم العقد سلم المبلغ جميعه ،

واما مجيء السلطان الى بغداد ومقامه فيها وان لا يحدث نفسه
بالرحيل ، فهذا امر لا بد من عرضه عليه ، فلما رأى الخليفة
القائم ان الشروط التي اشترطها وادخلها في الاقترحات لا تحول
دون تزويجه ابنته بطغرل بك ، اسف على قوله وندم لأن المانع
الأصلي عنده كان من موانع الكفاءة التي قيل قديماً فيها :
فطلقها فلست لها بكفء والا يعزل مفرقك الحسام

فالسيدة بنت القائم عربية قرشية هاشمية عباسية ، من بيت
الخلافة وطغرل بك تركي سلجوقي سلطان بني سلجوق فلم يكن كفواً
لها ، واضطر الخليفة الى ان ندب القاضي ابا محمد رزق الله بن
عبد الوهاب التميمي الحنبلي المشهور في تاريخ الدولة العباسية ، الى
الخروج الى الري ولقاء السلطان طغرل بك ، والاستقصاء في الاستعفاء
من هذا الزواج المطلوب ، واصحبه تذكرة ، والتذكرة عندهم
آخر الشروط وغاية الكلام المحرر ، وقال له : « ان تم الامر فهو
المراد ، والا فاعرض التذكرة على السلطان على مضض مني وكره
لذلك » . وأرسل معه أبا الفوارس طراد بن محمد الزينبي الملقب
بالكامل ، نقيب الهاشميين ، وبعث معها بخلع وهدايا للسلطان
طغرل بك ، ورسم لابني محمد التميمي ان يستعين عميد الملك منصوراً
الكندري وزير السلطان ، على العدول عن هذه الخطبة ، فكان
كالمنجيين من الرمضاء بالنار .

ودخلت سنة ٤٥٣ ، والمراسلة في اولها ، وفيها عزل
طغرل بك ، ابا الفتح المظفر بن الحسين عميد العراق ، وولى مكانه
أبا احمد عبد الواحد بن الحضرمي النهاوندي ، ولقبه « رئيس العراقيين » ،

واذن له في القبض على ابي الفتح عميد العراق ، فلما علم هذا بالامر
التجأ الى دار الخليفة القائم بامر الله مستجيراً بها ، وفي شهر ربيع
الاول من السنة المذكورة دخل رئيس العراقيين بغداد ، واجتاز
بدار الخلافة ولم يدخل فيها ونزل في خيم تحت دار المملكة ،
وكأنه كان قد نزل في ارض المجيدية ، ومد يده الى إقطاع
الخليفة وهو قوام معيشته في ذلك الزمن زمن استبداد السلطنة ،
وحدث ان ضرب غلامان له ، ضربها جماعة من بني هاشم ، فبعث
غلامانه في السفن حتى قابلوا قصر التاج وفيه الخليفة القائم وكان
قصر التاج على الشط قرب المحكمة الشرعية ، فرموا القصر
بنشابتين واخذوا زورقاً للخليفة كان فيه شعير ، فانزعج الخليفة
والناس وجرت من هذا الوالي امور ثقلت على الخليفة ، فعوتب
ولكنه لم يُفد معه عتاب ، وشعر الخليفة العباسي انه انتقل من
استعمار بني بويه الى استعمار بني سلجوق ، وان حرمة كانت
اعظم في عهد بني بويه ، منها في عهد السلاجقة الذين جاؤوا
لانتقاده من الذل .

أما رسل الخليفة الى طغرل بك بالاستعفاء من ابرام أمر الزواج
فانهم وصلوا الى همذان ، وكان السلطان فيها ، ثم اجتمعوا به
واعطوه الكتب والهدية والخلعة وهي جبة ديباج مذهبة ، وفرجية
منسوجة بالذهب وعمامة مشبكة مذهبة ، فأعرب طغرل بك على
تعظيمه لذلك ووضع الفرجية على كتفيه ، ثم اذن لهم في الانصراف ،
وحضروا من الغد في دار المملكة بهمذان ، وطيف بهم في مجالسها ،
وكان فيها بيت في صدره دست مؤزر ومفروش بالنسيج ، فيه

سماط من ذهب عليه قلائد البلور والكافور والمسك والعنبر ،
وكان ما في السماط وحده يساوي أربعمائة ألف دينار ، وفي
الدار عدة بيوت مملوءة من فاخر النسيج والفراء كالسنباج والسمور
وابني قلمون ، وفيها شيء كثير من الآلات والفراش والجواهر
واليواقيت ، وقيل لهم : « كل هذا برسم الجهاز للسيدة المطلوبة
الخطبة » . ثم انصرفوا وبقي ابو محمد رزق الله التميمي ، فانه
خلا بالوزير عميد الملك الكندري وفاوضه في امر الزواج ، وطلب
منه ان يحمل سلطانه على ترك الخطبة ، وعرض عليه التذكرة
التي بعثه بها الخليفة ، فقال له عميد الملك : « هذه الرسالة والتذكرة
لا يمكن عرضها على السلطان ، فان الامتناع لا يحسن بعد السؤال
والضراعة ولا تحسن المطالبة بالبلاد والاموال بازاء الرغبة في الاقتدار
والجمال ، ومتى طرق هذا سمع السلطان وعلم ان الخليفة يرغب
في الاشياء لا فيه ، ويؤثر المال ولا يؤثره فربما تغيرت نيته
وحدث منه ما لا نؤثره ، وهو يفعل في جواب الاجابة اكثر مما
يطلب الخليفة » . فقال له ابو محمد التميمي : « الأمر اليك
والتعويل عليك فافعل ما تراه ، وألان له القول ، فسكن عميد
الملك الى ذلك وبنى عليه ان الخليفة موافق على تزويج ابنته
اذا نفذت الشروط ، وقال للسلطان : « ان اجابة امير المؤمنين
القائم بأمر الله قد حصلت » ، فسر السلطان : سروراً عظيماً وجمع
الوجوه والاكار وعرفهم الامر ، وقال لهم عميد الملك : « ان
السلطان يذكر لكم نعمة الله عنده ، وبلوغه ما لم يبلغه احد من
السلاطين قبله ، بسبب هذا الاتصال بامير المؤمنين ، يعني المصاهرة

ثم اراد الوزير ان يأخذ خط رسول الخليفة واقرارده بالقبول ،
فأبى الرسول وكتب خطه بمقتضى رسالة الخليفة وتذكرته ، فشق
ذلك على عميد الملك وصعب عليه ، لانه ظن نفسه ناجحاً في
ايرام زواج السلطان ، فعاد الامر كما كان . والظاهر انه لم يطلع
سلطاناه على خط ابي محمد التميمي رسول الخليفة لتبقى القضية
مبهمة فينجو من تبعتها عند السلطان . ثم امر السلطان وزيره
عميد الملك بالمسير الى بغداد مع بنت اخيه خديجة ارسلان خاتون
زوجة القائم بأمر الله - وكانت معه كما ذكرنا - لايرام العقد .
وبعث معها فروخ خادمه الخاص وقاضي الري ابا يحيى سعد بن
صاعد ، واصحاب الخاتون مائة الف دينار من مهر بنت الخليفة ،
وآلات ذهب وفضة وغيرها من ادوات الجواز ، حتى الجواري
والكراع ، وفي جملة ذلك الفان ومائتان وخمسون قطعة من
الجوهر ، فيها سبعمائة وعشرون قطعة وزن الواحدة ما بين
ثلاثة مثاقيل الى مثقال ، وقال للخاتون : « ان لم يُنعم الخليفة ويُجب
الى تسليمها فأقعدني فروخ يرسم خدمتها والقيام على باب حجرتها » .
وكان عميد الملك قد تلكأ في السفر الى بغداد ، ودافع وقال
للسلطان طغرل بك : « قد كنت كتبت الى هزارسب بن بنكبير
ابن عياض الكردي ، والى البصرة والاهواز حتى يحضر مائة الف
دينار مما عليه ، ولا تخرج من خزانة الدولة شيئاً ، وانا على
انتظاره » ، فقال له السلطان : « لا تفعل وخذ من الخزانة فانا
يقبح بنا ان لا يكون في خزانتنا ما نصرفه في هذا الامر » .
فحينذاك لم يجد بداً من المسير مع علمه بغموض المصير . وقال

الحجاب والامراء الذين معه : « اننا منفذون الى الخليفة في هذه
المصاهرة والوصلة فما الثقة بان الخليفة يفعلها ويسلم ابنته اليها ؟
فربما لا يفعل فنعود ولم نقض حاجة السلطان ، وتحصل من ذلك
قباحة وُسْبة » . فقال لهم السلطان : « ان فعل الخليفة فذاك
وان لم يفعل فنعودوا ، لاننا اردنا ان نعلم رأي الخليفة فيها
وموضعنا عنده » ، وامر الجميع بالمسير الى بغداد ، فساروا ثم
وصلوا اليها في يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الاولى من سنة
٤٥٣ ، واستقبلهم من بلدة النهر وان تحت بعقوبا امين الدولة
ابن داود وزير الخليفة ، واظهر عميد الملك التعظيم والتكريم .
ولما دخل عميد الملك بغداد لم يدخل دار الخلافة بل جلس
على باب النوبي ، الى ان دخلت ارسلان خاتون دارها فدخل
معها الدار ، ثم انصرف الى دار المملكة في ارض العيوانية
الحالية ، فنزل فيها وارسل من وقته يستدعي العميد ابا الفتح
المظفر بن الحسين رئيس العراقيين ، وكان بدار الخلافة على ما ذكرنا
لاجئاً اليها ، وبعث اليه بخاتمه ايماناً له ، فجاء اليه فعاتبه عميد
الملك وقال له « اكلت ضمان بغداد سنة ولم توف » . ثم تركه حراً
اياماً ، وبعد ذلك قبض عليه وقيده ثم ضربه بالحشيش وبقي في
الاعتقال ، حتى اخرج له الف دينار ، وكفله احد الامراء ثم
اخرج من بغداد الى باب السلطان بهمدان ، ليلقى هناك حسابه ،
ويعرض اعماله ويزيل التهمة عن نفسه .

ولما علم الخليفة القائم بامر الله بهذه الامور كلها ، ايقن ان
الشروط التي سببها مع القاضي ابي محمد التميمي والاقتراحات لم

يحيى ، جواب محرو عنها ، وعلم ان المهر قد حمل منه مائة الف
دينار ، فاظلمت الدنيا لعينيه ، وظهر له سوء تدبيره ، ولما طواب
بابرام العقد قال : « ان هذا تشنيع وتبشيع لا خفاء به ولم تجر
به عادة احد من الملوك بأخذ احد من الخلفاء مثله ، وامتنع من
العقد ، ثم قال « إن أعف من ذلك والا خرجت من بغداد » ،
ولم يفد حضور عميد الملك دار الخلافة فائدة ، لان الخليفة أصر
على الامتناع والاباء ، فبعث عميد الملك الى ارسلان خاتون في
ان تخاطب الخليفة في معنى المصاهرة والوصلة ، فخاطبته وهي
زوجته - كما هو معلوم - ، فاقام على امتناعه ورفضه ، وإذا
تقطعت بعميد الملك الاسباب ، اخذ يطلق لسانه بالقبيح في ذكر
الخليفة ، وقال : « قد كان يجب الامتناع في اول الامر ولا يكون
اقتراح ولا تذكرة ، وهذا الامر ان لم يتم كان سعياً في دمي
عند السلطان » ، ثم غضب واخرج نوبته أي طبوله ، لان الوزير
كان اذا سار ضربت الطبول بين يديه ونحرب الطبول أيضاً ببابه
في اوقات الصلوات الخمس ، فضربها بالنهروان ، وعزم على
الخروج ، فسأله ابو منصور عبد الملك بن يوسف ، الوجيه البغدادي
المشهور في تاريخ بغداد ، وقاضي القضاة علي بن محمد الدامغاني
ان يتوقف ، وكاتباً خليفة بني العباس القائم وأرهباه وخوفاه
ونخامة العاقبة ، وحسنا له العقد بشرط ان يشهد عميد الملك وقاضي
الريّ ابو يحيى سعد بن صاعد على انفسهما - بحكم وكالتهما - ، انهما
لا يطالبان بالسيدة المخطوبة المطالبة مدة اربع سنوات . ثم
استفتي الفقهاء فيما حدث بين السلطنة والخلافة ، وتعليق الخليفة

العقد على الشروط التي ذكرها ، فقال الحنفيون : « ان العقد صحيح
والشرط باطل » ، وقال الشافعيون « ان العقد باطل اذا دخله
شرط » ، وكان الخليفة شافعيًا فاحتج بمذهب الشافعي ، وامتنع
من تزويج ابنته .

وزار عميد الملك الخليفة فوعظه ومنعه مما قد ليج فيه ، فقال
له : « انا اردّ هذا الامر يا منصور بن محمد الى ديانتك ، وقد علمت
ما فيه من الوهن على بني العباس ولم تجر لهم به عادة » .
وكتب الخليفة كتاباً الى احد اصحاب السلطان طغرل بك ،
يشكو فيه ما لقيه من اصحاب السلطان من العدوان ، اذ لم تكن هذه
المعاملة معاملة من يطلب الشرف بالمصاهرة ، والتجمل والثواب
في الآخرة .

- ٢ -

واذ كانوا على تلكم الحال ورد على عميد الملك من طغرل بك
كتاب يأمره فيه بأن يرفق بالخليفة ، وان لا يخاطب في هذا
الأمر إلا بالجميل ولا يكرهه احد عليه ، وانكر ما فعل به
اصحابه ، فكتب عميد الملك كتاباً الى سلطانه يستأذنه فيما يفعل
إذن ، وأقام يرعد ويبرق ويقول فيكثر ، والخليفة يحتمله ويصبر .
وذات يوم صنع له امين الدولة ابن دارست وزير الخليفة دعوة
في ديوان الخلافة ، فشرع يأكل وغلمانه يتصافعون ويتضاربون
بالمخدرات حتى تقطعت ، وهذا دليل على احتقارهم صاحب الدعوة ،
ومعلوم أن صاحبها هو الخليفة . وجاء يوماً الى ديوان الخلافة
وعليه ثياب بيض وتحتة بغلة بيضاء ، مع اثنتي عشرة بني العباس

السواد ، فثيابهم سود وعمائمهم سود إلا في أيام الحزن والعزاء فانهم يلبسون الثياب البيضاء ، فعوتب وزير السلطان على مخالفة رسوم الدولة العباسية وآتيها ، فقال : « هذا هو اللباس على ما جاءت به السنة النبوية » . ثم حضر عهيد الملك في جمادى الآخرة من السنة ، بحضرة الخليفة القائم بأمر الله ومعه القضاة وغيرهم ، وكان من عادة الخليفة في الظهور للزائرين انه يجلس خلف ستار ثم يزاح هذا الستار فيراه الرائي ، فشرع عهيد الملك يستطعم الخليفة الكلام ويستدرجه اليه ، وقال « أسأل مولانا امير المؤمنين الدخول في ذكر ما شرف به ركن الدين طغرل بك ، الخادم الناصح العبد المخلص وفيما رغب فيه وسمت نفسه اليه ، ليسمع الجماعة كلام امير المؤمنين » ، فقال الخليفة « نحن بنو العباس ، خير الناس بنا رشد واهتدى ، ومن ناوانا ضل وغلوى ، وقد سطر في هذا المعنى ما فيه كفاية » ، واسبلت الستارة بينه وبينهم ، فانصرف عهيد الملك مغضباً ، وسار عشية الثلاثاء السادس والعشرين من جمادى الآخرة طالباً همدان ومعه المال والجواهر ، وبقي الناس وجلين خائفين من اضطراب الأمر وانقطاع الاتصال بين السلطنة والخلافة العباسية ، واستمرار النزاع من اجل السيدة بنت القائم .

وفي شهر رجب من السنة المذكورة - اعني سنة ٤٥٣ - ورد رسول الوزير عهيد الملك إلى ابي نصر احمد اصحابه ببغداد ، يذكر فيه ان السلطان ارسل اليه بكتاب يقول فيه « ان الخليفة إن لم يجب إلى المصاهرة والوصلة التي سألها فطالبه بتسليم ارسلان

خاتون وردھا الی ، وافی ساسر الی بغداد وأتولى خطاب الخليفة
في هذا » ، وأمره بترك المال والجهاز ببغداد . ويقول عميد الملك
في كتابه « وقد أعدت هذا الرسول الی بغداد لنقل الخاتون الی
دار المملكة ، الی حين اجتماعي بالسلطان وإصلاح هذه القضية » ،
وكتب الوزير إرسال خاتون بمثل ذلك ، فازداد الاتزعاج ودافع
الخليفة عن الإجابة ، فشرع رئيس العراقيين عبد الواحد النهأوندي
في خرق الحنية ، وهجم دار الخلافة مراراً وأخذ من الثجأ اليها ،
وقبض على أحد المقدمين الذين بعثهم الخليفة ليتولوا بعض أقطاعه ،
وكان لائذاً تحت قصر التاج الذي فيه الخليفة ، فأخذ منه العمامة
واللحاف ، والخليفة يشاهده فاستغاث الرجل بخدم الخليفة الذين
كانوا على الروشن أي بالكون ، فلم يستطيعوا عونہ ، وأدخل
رئيس العراقيين يده في أقطاعات الخليفة والحاشية والخدم ،
وطالبهم بالحقوق التي كانوا قد أدوها . فعل ذلك كله لا يذلاء الخليفة
واجباره على ترويح أبنته ، فإظهر الخليفة العزم على الخروج من
بغداد وأمر بإصلاح طياره وهو من السفن السريعة ، واتزعج
الناس من ذلك ثانية وتوقعوا حدثاً منكراً وخافوا . فلما رأى
الخليفة ذلك أمر فنودي فيهم ، (ان الخليفة غير عازم على ترك
بغداد) ، فسكتوا وهذا روعهم ، ثم وصل الی رئيس العراقيين
كتاب من طغرل بك ، يأمر فيه بقبض ما في يد الخليفة من
الأقطاع وما في يد حاشيته ، وان لا يترك له إلا مكان مقررأ لابيه
القادر بالله ، وان يطالبه بتسليم حاجبه لان السلطان اتهمه بإفساد
ذات البين ، فحضر رئيس العراقيين بيت التوبة من دار الخلافة ، وعرض

على ديوان الخلافة ما امر به السلطان ، فقال له الخليفة : « اما الاقطاعات
فبين ايديكم ، واما الحاجب فليس لما نسب اليه أصل ولا حقيقة ،
ويحضر قاضي القضاة فيستحلفه بالايان التي تبرىء ساحته ، فأما
المطالبة بتسليم خواصنا وأصحابنا وثقاتنا فما لا نفعله » ، وبالف
رئيس العراقيين في استعمال القبيح في حق الخليفة ، وخرق هيئته
ورفع الحشمة والحياء ، واستولى ايضاً على الجوالي وهي جزية
اهل الذمة ومقدارها الف وخمسمائة دينار ، وكانت داخلة في
اقطاع الخليفة ، فصعب ذلك عليه ، وبعث الى رئيس العراقيين
ابي منصور عبد الملك بن يوسف وقال قل له : « ان ركن الدين
طغرل بك ما جعل هذه الجوالي لنا فيأخذها منا ، وانا هي اصل
من اصول الشريعة يتعلق بنا فلا يجوز صرفه عنا » ، فقال رئيس
العراقيين لرسول الخليفة : « هل أخطر بنفسي مع سلطاني في خدمة
الخليفة ، وورائي اعداء ينقلون الى السلطان عني اني مقصر في
ما اعتمده في حق الخليفة ، وقد كنت ارجو ان ينصلح الأمر
وما أراد الا قد تفافم ، وتزايدت الوحشة والكتب ترد علي من
السلطان ، بكل ما يزيد النفرة والوحشة بينه وبين الخليفة »
فقال له الرسول : فرج عنا فنحن ندير أمر المصاهرة والوصلة ،
ونريد ان نواصل السلطان بذلك ، فرفع رئيس العراقيين يده ،
وانسلخت سنة ٤٥٣ ، والحال بين السلطنة السلجوقية والخلافة
العباسية ، على ما ذكرنا من الاختلال والاعتلال والمراسلة
والاحراج ، وكانت اكثر الجراءة على الخليفة من عمل عميد الملك
الوزير .

وأيقن الخليفة القائم بأمر الله بأن القوم غير تاركيه حتى يجيب
إلى الزواج ، وفي صفر من سنة ٤٥٤ أرسل من قبله أبا
الفنائم بن المخلبان أحد ثقاته ، إلى طغرل بك لتسليفي الأمر وخوفاً
من بُعد المرام واتساع الحرق وغضب السلطان المتزايد ، واستشهد
الخليفة على نفسه بالإجابة إلى الزواج ، قاضي القضاة أبا عبد الله
الدامغاني ، وأبا منصور عبد الملك بن يوسف ، وكتب وكالة
لعميد الملك وزير طغرل بك ، في إبرام العقد ، أجاب الخليفة إلى
ذلك مكرهاً مجبراً بعد أن تنع وتأتى وأقدم واحجم ، وبعد
خمس أيام من خروج رسول الخليفة ورد ببغداد كتاب من
السلطان يتضمن رد الاقطاع إلى الخليفة والاعتذار بما جرى به
سوء المقدار ، من تلك الأمور المكروهة والأفعال القبيحة ، وجاء
في الكتاب « ان رسولاً من قبل السلطان وارد على الخليفة ، هدية
ومشافهة تتضمن التنصل من كل ما جرى عليه من الاضطهاد ،
فطابت النفوس ووقعت البشائر ببغداد ، وخلع على الوكالات الذين
حملوا كتاب السلطان طغرل بك ، وطيف بهم ببغداد والطبول
والبوقات تضرب بين أيديهم ، وكانت الخليفة رسوله ابن المخلبان
وكان قد وصل إلى شهرزور بالتوقف عن المسير ريثما يصل رسول
السلطان طغرل بك إلى بغداد برسالة فيكون جواب الخليفة بمقتضى
الرسالة ، فأقام ابن المخلبان هناك متعللاً بالأمطار وكثرة الثلوج ،
وبأن خراجاً خرج في رجله منعه عن الركوب .

ولما طالت أيام ابن المخلبان بشهرزور ، وعرف السلطان
طغرل بك ان الخليفة أمره بالتأخر غضب واغتاظ ، وانفذ بكتاب

الى ابنة أخيه ارسلان خاتون زوجة الخليفة ، يدعوها به الى الخروج من دار الخلافة والتجوز الى الري ، فانه مشتاق اليها - على ما ادعى - ومؤثر لمشاهدتها ، فاستأذنت زوجها الخليفة فلم يأذن لها ، ثم سأل عن السبب الذي حمل طغرل بك على ذلك ، فقبل له : سببه تأخر رسولك ابن المخلبان عن السفر الى حضرة السلطان بقبولك التزويج ، فقال قولوا لهم : « انا توقف لانتظارنا الرسول الذي ذكرتم إنفاذه الى بابنا لنسمع رسالته ، ويكون إنفاذهما جميعاً ، أما وقد استشعرتهم فنحن نأمر ابن المخلبان بالانمام » ، وكتب اليه بالمسير من شهرزور الى السلطان فسار ووصل الى حضرته .

وفي يوم الخميس الثالث عشر من شعبان في سنة ٥٤٤ عقد العقد للسلطان طغرل بك على السيدة بنت القائم بامر الله ، بظاهر تمييز في الاسم دون الحقيقة ، فلا يتصل بها ولا يلامسها حتى يفرق بينها الموت ، وكان ذلك من الظلم العبقري الذي فعله طغرل بك ، وعمل للعقد سماط عظيم واحتفال جسيم ، وكتب ابن المخلبان الى الخليفة رسالة يخبره فيها ، انه احتفل به أعظم احتفال وقرى توقيع الخليفة الى السلطان على رؤوس الاشهاد والسلطان حاضر ، وانه سلم وكالة الخليفة المحررة الى عميد الملك وزير السلطان فقبلها ، وأوصلها الى السلطان فقام من مجلسه عند مشاهدتها وقبلها وقبل الارض ودعا ، ثم أعادها الى عميد الملك فقرأها ، وانهم لما سمعوا أن الخليفة قد رسم فيها تعيين المهر بأربعمائة درهم ودينار ، ارتفعت الاصوات بالدعاء للخليفة ، وبعد الاملاك نثر

من الذهب والؤلؤ ، وتكلم السلطان باللغة التركية بما معناه
الشكر والدعاء ، وأنه المملوك القين الذي قد سلم نفسه ورقته
وما حوته يده وما يكسبه باقي عمره الى الخليفة ، ثم أرسل
طغرل بك الى الخليفة بهدية مشتملة على ثلاثين غلاماً أتراكاً على
ثلاثين فرساً ، وخادمين وفرس مبرك وسرج من ذهب مرصع
بالجواهر الثمينة ، وعشرة آلاف دينار ومثلها لكرميته المزوجة
مع عقد جواهر فيه نيف وثلاثون حبة في كل حبة مثقال ، وجميع
ما كان لآلتون خات المتوفاة من الاقطاع بالعراق ومنه يعقوبا ،
وثلاثة آلاف دينار لوالدتها وخمسة آلاف دينار للأُمير عدة الدين
محمد بن القائم بأمر الله أخي السيدة ، ووردت الكتب بخبر توجه
السلطان طغرل بك الى بغداد ، ثم جاءت أراجيف بموته ثم جاءت
البشارة بسلامته من مرض شديد ، ولم يكن ريب في ان هذا
السلطان كان قد كبر وأسنَّ وقارب الموت ، وكان زواجه
الاسمي بتلك الشابة إيداناً بوداعه الدنيا .

وكان في تلك الأيام مؤرخ عراقي شبه رسمي ، هو غرس
النعمه محمد بن هلال بن المحسن بن ابراهيم الصافي من ذرية ابي
اسحق الصافي الكاتب المشهور ، فأراد ان يسجل هذه الحادثة
تسجيلاً رسمياً فانها وحيدة فريدة ، فتوصل الى استكتاب الخليفة
برجل وجيه مقرب عنده ، فأرسل اليه القائم بأمر الله على يد
الوسيط بهذا الشرح الذي يقول فيه : « لما كان من فعل
البساسيري اللعين ، وانتهازه الفرصة فيمن الضوى اليه من
الاجناد المطرودة عن مدينة السلام ، وعود ركن الدين طغرل بك

الى بلاده ونشأه بقتال اخيه ابراهيم اينال حين شرد عن الطاعة
وفارق الجماعة ، واصفى الى اباطيل البساسيري واطمأه في الدولة
والولاية ومضاره دار الخلافة ، وافترض حكم الاستظهار انتقال
الامامة الى الحديثه ، والمقام بها الى ان تستقر الامور وورد ركن
الدين طغرل بك الى مدينة السلام ، وعادت الخدمة الشريفة الى
مستقر سديها ، وقتل اللعين البساسيري وحمل رأسه الى الخزانة
الامامية ، واقترح ركن الدين طغرل بك الانافة به ومقابلة خدمته ،
بما يبقى له فخره وجماله على الاعقاب ، ويتخلد ذكره مع الدهر
والزمان ، ورغب في الخدمة بتجميله بعقد على كرسيها ، وعلم
ان موضعه يقتضي كل الحجاب وتوددت في ذلك اقوال اختلفت
وبذل في مقابلة ذلك من الاموال والاقطاعات ما اشتمل على
الف الف دينار ، سوى الاواني المرصعة والمهد المرصع والمراكب
المرصعة بالجواهر الثمينة ، وأعيد جميعه ثم انسأقت الحال الى ان
عقد اسماً من غير اجتماع على اربعمائة درهم ودينار ، ثم يساق
الشرح على ما جرى فيه ونسأل الله التوفيق في جميع الامور .
هذا ما ذكره محمد بن الصابي .

وهذه الوثيقة المكتوبة قد احتوت على تسويغ الزواج ووضح
فيها ان طغرل بك عرض مليون دينار لانعام الزواج بالسيدة بنت
القائم ، ولما رأى والدها ان الامر ليس بأمر مال ولا خول ،
اقتصر على المهر الشرعي اربعمائة درهم ودينار ، واعاد سائر
الاموال المعروضة ، قال ابو المظفر سبط بن الجوزي : « ذكر
جدي ابو الفرج بن الجوزي في المنتظم ان العقد وقع على اربعمائة

الف دينار ولكن الذي ذكره ابن الصابي ألبق بالقصة لان الخليفة القائم بأمر الله اتبع السنة الطاهرة في اربعمائة درهم ودينار ، وسار طغرل بك من تبريز الى ارمية ، ومرض هناك فشعب عسكره فأجلس على مضض وألم ، وادخل اليه قواده ووجوههم ، فاوصاهم بوصية يعملون بها ان نزل به حادث ، ثم شفي ونحس نحو بغداد ، ثم وصل الى تكريت واستدعى بسفن لينزل فيها الى بغداد ، وسار في دجلة حتى وصل قبالة قرية القفص ، وكانت شمال بغداد قريبة منها ، فعزم الخليفة القائم بأمر الله على تلقيه واستقباله هناك ، فاستعظم ذلك طغرل بك وابى ان يكلف الخليفة مثل ذلك التكليف ، واستقبله الوزير ابو نصر محمد بن جيهنم التغلبي ، ثم دخل السلطان بغداد ودخلت عساكره فنزلوا في دور الناس بعد ان اخرجوهم منها ، وكان في تلك الايام برد شديد فكانوا يوقدون من خشب الدور المستعمل في البناء ، ويتعرضون لحرم الناس حتى ان قوماً من الاتراك صعدوا الى جامات حمام نسوي ، بنهر القراطيس وآخر بنهر طابق من الجانب الغربي ببغداد ، ففتحوها واطلعوا على النساء ، ثم نزلوا فهجموا عليهن فاخذوا منهن من ارادوا وخرجت الباقيات عاريات الى الطريق فاجتمع الناس وخلصوهن من ايديهم ، وقطع الجند الطرقات واخذوا عمائم الناس ، وطغرل بك سلطانهم حامي الخلافة والامامة مقيم في دار المملكة لا يبدي ولا يعيد ، ثم ارسل وزيره عميد الملك الكندري الى الخليفة يطالبه بالسيدة ، ويطلب نقلها من دار الخلافة الى دار المملكة ، وبعث اليها مع الوزير بخاتمه وكان ذهباً وعليه فص

ماس وزنه درهمان ، وبات الوزير في ديوان الخلافة مطالباً بنقل السيدة ، فقال الخليفة : « انك يا منصور بن محمد كنت تذكر ان الغرض من هذه الوضلة التشريف بها ، والذكر الجميل لركن الدين طغرل بك فيها » ، وكنا نقول لك : اننا ما نمنع من ذلك إلا خوفاً من المطالبة بالتسليم ، وجرى ما قد علمته ، ثم أخرجنا ابن المخلبان وقرر معكم قبل العقد ما اخذ به خطك ، وانه ان كان يوماً يطالب برؤية السيدة كان ذلك في دار الخلافة ، ولم نسم اخراج الجهة منها ، اراد بالجهة « السيدة بنته » فقال عميد الملك « هذا كله صحيح ، والسلطان مقيم عليه وعازم على الانتقال من دار المملكة ، الى هذه الدار العزيزة حسبما استقر ، وهو يسأل أن يقرء فيها لحجابه وغلماناه وخواصه ، مواضع يسكنونها فيما يمكنه بعدهم عنه » .

فقطع بهذا الكلام الحجة ، ثم راجع وكرر المراجعة حتى أجاب والدها الى نقلها الى دار المملكة ، فزقت الى طغرل بك في منتصف شهر صفر من سنة ٤٥٥ مصعدة في دجلة ، وكانوا قد نصبوا لها من مشرعة دار المملكة على الشط قرب العيوضية الى الدار نفسها سرادق تسير فيه ، وضربت البوقات والطبول العظيمة عند دخولها الدار ، فجلست على سرير ملبس بالذهب ، ودخل السلطان طغرل بك حجرتها فقبل الارض بين يديها وخدمها ، ودعا لانيها الخليفة ثم خرج من غير ان يجلس .

أما السيدة فلم تقم له ولا كشفت البرقع عن وجهها ، ولا رأت وجهه لحسن حفظها . وظل السلطان والخواشي في صحن

دار المملكة يرقصون ويفنون باللغة التركية فرحاً وسروراً ،
ولقد كان رقص السلطان طغرل بك من عجائب الزمان وما يندرك
ان يمليه الملوان ، ثم انفذ للسيدة مع ارسلان خاتون بشيء كثير
من الجواهر ، منها عقداً فاخران ونسيج خسرواني ذهب ،
وقطعة ياقوت حمراء كبيرة ، ودخل اليها من الغد فقبل الارض
ايضاً وخدمها ، وجلس قبالتها ساعة على سرير ملبس بالفضة ،
ثم خرج وانفذ اليها بجواهر اخرى ثمينة ، وفرجية مكحلة بحب
اللؤلؤ ومخنقة منسوجة بحب اللؤلؤ ، وما زال كل يوم يفعل ذلك
ويخدمها ويقبل الارض ويبعث بالتحف ، وظهر عليه سرور عظيم ،
ومن الخليفة تألم جسيم . وخلع على وزيره عميد الملك وزاد في
القباه لحصول المصاهرة بسفارته ، وبقيت الولاة في دار المملكة
اسبوعاً كاملاً ، ولتسع بقين من شهر صفر المذكور مد سباط
كبير وخلع على جميع الامراء الذين جاؤوا ببغداد مع السلطان
طغرل بك ليشهدوا هذا الزواج المضحك للعقلاء .

وفي شهر ربيع الاول حضر الوزير عميد الملك بيت النوبة بدار
الخلافة ، واستأذن للسلطان طغرل بك في السفر من بغداد والانصراف
الى بلاد ايران ، فأذن له الخليفة ، فاستصحب السيدة العباسية معه
بعد ان امتنعت وأبت إباءً شديداً ، فقلظ السلطان عليها والزمها
المسير منعه ، ولم يتبعها من دار الخلافة سوى ثلاث نسوة برسم
خدمتها ، ولحق بوالدتها من الحزن ما لم يمكن دفعه عنها ، ولحق
والدها الخليفة امر عظيم وظهر الحزن عليه ، وكان فعل السلطان
لذلك بإشارة وزيره عميد الملك .

وخرج طغرل بك من بغداد في يوم الاحد الثاني عشر من ربيع الاول ، وكان مريضاً مأبوساً من سلامته ، فوصل الى الري وتوفي فيها في ثامن شهر رمضان من السنة التي تزوج فيها ، ذلك الزواج الاسمي ، ووصل نعيه الى بغداد ليلة الاحد الرابع والعشرين من الشهر ، اي بعد ستة عشر يوماً وكان له من العمر سبعون سنة تقريباً وقيل ثمانون ، وكان بين زفاف السيدة بنت القائم اليه ووفاته ستة اشهر وثلاثة وعشرون يوماً . وجلس وزير الخليفة في صحن السلام بدار الخلافة للغزاء بالسلطان ، وقطعت خطبته من منابر بغداد بحكم موته .

واضطربت الدولة السلجوقية بعد موت طغرل بك ، وكثر المطالبون بالسلطنة على اختلاف اجيالهم . وفي الري اضطربت احوال الجنود ، وطالب الوزير عميد الملك السيدة بنت القائم ، بجواهر كانت للسلطان معها ، وذكر زيادة قيمتها ونفاستها ، وحاجته الى انفاقها على الغلمان من جنود السلطان ، فانكرت السيدة ذلك ، فاستولى على اقطاعها ونواحيتها ، ثم استظهر عليها واخذ منها ما اخذ ، وكان يريد ان يولي بعد طغرل بك ابن اخيه ابا القاسم سليمان الملقب بمشيد الدولة ، فلم يتم له الامر وتولى السلطنة ألب ارسلان محمد بن داود ، وهو ابن اخي طغرل بك ايضاً واخو الطالب للسلطنة المذكور ، واعتقل وزير عمه عميد الملك الكندوي لان وزيره نظام الملك ابا علي الحسن واسحاق الطوسي حرضه عليه وقال انه لا يؤمن شره ، ثم ارسل السلطان ألب ارسلان السيدة بنت القائم في الحال ، واذن لها في الرجوع

الى بغداد ، وأنفذ اليها خمسة آلاف دينار للنفقة ، فأبى ان تقبلها ،
فقبل لها : لا يجوز رد مثل ذلك فقبلت ، وخرجت من وقتها
الى دار المرتضى نقيب العلويين بالري ، ثم سارت من عنده الى
بلدة سامرا وفي خدمتها جماعة من الأعيان ، منهم رسول السلطان
أبى ارسلان فقد جاء يطلب الى الخليفة اقامة الدعوة والسلطنة
لصاحبه ، ووصلت السيدة الى بغداد عشية يوم الاحد ثالث عشر
ربيع الآخر ، وخرجت لاستقبالها والدتها وخدم دار الخلافة
والقهرمانة صلف ، واجتمع الناس لمشاهدتها فدخلت ليلاً وسر
أبوها القائم بدخولها وعودتها ، وبقيت هذه السيدة المتزوجة
العذراء في دار الخلافة ، فحقت اخبارها واحوالها .

وفي سنة ٤٦٧ توفي والدها القائم بأمر الله وهي في الحياة
وتولى الخلافة ابن اخيها عبد الله ولقب بالمقتدي بأمر الله ، وعاشت
طوال خلافته حتى توفي سنة ٤٨٧ ، وولي الخلافة بعده ابنه
المستظهر بالله ، وفي عهد هذا الخليفة ظهر للسيدة بنت القائم تدخل
في السياسة ونسب اليها انها تسعى في إزالة دولته ، فألزمها
الاقامة في دارها ومنعها من الخروج حتى وفاتها عذراء لم تنس
في سادس المحرم من سنة ٤٩٧ ، وحملت جنازتها في زبذب من
دار الخلافة الى الرصافة جنوبي الاعظمية الحالية ، وجلس ارباب
الدولة العباسية في بيت التوبة للعزاء بها ، وكأنة موصوفة بالدين
وكثرة الصدقات ، وقد أدركت ثلاثة خلفاء ابىها القائم بأمر الله
وابن اخيها المنتري بأمر الله ، وحفيد اخيها المستظهر بالله وفي
عهده توفيت وأدركت من سلاطين بني سلجوق ثمانية ، زوجها

الاسمي طغرل بك وألب أرسلان ابن أخيه داود وملكشاه بن
 ألب أرسلان وتتش بن ألب أرسلان ومحمود بن ملكشاه
 وبركيارق بن ملكشاه ومحمد بن ملكشاه وسنجر بن ملكشاه .
 ومات بعد ان ضحي بشبابها بل بحياتها من اجل زواج اسمي
 اراده طغرل بك ودل على حماقة وقسوته معاً . قال ابن الاثير
 عز الدين « وهذا لم يجر للخلفاء مثله فان بني بويه مع تحكمهم
 ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطمعوا في مثل هذا ولا ساموهم فعله » .
 وكان للوزير عميد الملك منصور بن محمد الكندري أثر سيء
 في هذه الحادثة النادرة ، وفي إخراج السيدة من دار الخلافة
 وتسيورها مع السلطان طغرل بك إلى الري . ولما اعتقل عميد
 الملك أرسل الوزير نظام الملك إلى السيدة المذكورة يعلمها أنه
 دبر في اعتقال عميد الملك ، لما فعله في حقها وسببه من نقلها
 خارج دار أبيها وبلاده خلافاً للشروط ، وآل أمر عميد الملك
 إلى ان حرض نظام الملك عليه السلطان ألب أرسلان فأمر بقتله
 فقتل يوم الاحد سادس عشر ذي الحجة في سنة ٤٥٦ ، ومثل به
 أفضع تمثيل . ولا نشك في أن نظام الملك اتخذ إساءة عميد الملك
 إلى الخلافة العباسية ذريعة إلى القضاء عليه وإزالة مزاحم له في
 مرتبة الوزارة ، معروف بالكفاية والدراية والسياسة والرئاسة ،
 وان كان جريئاً على الخلافة العباسية في خدمة سلطانه العاشم .
 ونختم الكلام على السيدة بنت القائم بأمر الله بان المؤرخين
 المعاصرين والمنتحلين لكتابة التاريخ ، ظنوا بل عدوا هذا الزواج
 زواج طغرل بك بالسيدة العباسية حقيقياً ، ولم يكن في الحقيقة

كذلك ، بل كان زواجاً اسماً صورياً ، وعلى نحوه جرى زواج
السيدة زبيدة بنت المقتدي لأمر الله ، زوجة السلطان مسعود
ابن محمد بن ملكشاه العجوز ، وكلتاها ماتت عذراء ، ومن الخطأ
المبين ما قرأه الناس في بعض الروايات العصرية من أن طغرل بك
أراد بزواجه بابنة الخليفة القائم بأمر الله أن تنقل الخلافة إلى ابنه
بعد وفاة القائم بأمر الله ، فهذا من الهراء والتخيل ، لما ذكرنا
من الأسباب والأخبار ، فنظام وراثته الخلافة لم يخرج عن قول
الشاعر :

بنونا بنوا أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعد

هذا إلى أن الدلائل دلت على كون طغرل بك عقيماً لم يولد
له ولد على تعدد زوجاته ، وورث السلطنة بعده ابن أخيه ألب
أرسلان كما هو معلوم وقد أومأنا إليه فيما أسلفنا من الحديث .
هذا ما وجدناه من سيرة المتزوجة العذراء السيدة بنت القائم
بأمر الله العباسي ، وهي سيرة مشتملة على حوادث غريبة وعظمت
وعبر ، استبان فيها ما لقيه خليفة بني العباس من جور بني سلجوق
واضطهادهم ، وطلبهم منه ما لم تسم إليه نفس ملك ولا سلطان
قبلهم ، واتضح فيه لون الحكم الذي كانوا يحكمون به البلاد ،
وسيرة جنودهم القبيحة بين العباد ولا سيما أهل بغداد ، فإنهم
كانوا يخرجون الناس من مساكنهم ولو في أشد الأوقات برداً
ويغتصبونها ويسكنونها ، ويتعرضون للناس ويحرمهم حتى في
الجماعات ، وانكشف بها سيرة سلطانهم طغرل بك وما كان عليه
من قلة المبالاة بأمور الرعايا ، والتقصير في تأديب الجنود ، وتعلقه

بالامور النافهة وتركه مكارم الامور ، ومحاسن التدبير ، وتنكبه
عن جادة السياسة الحكيمة .

والعبرة الاجتماعية من ذلك الزواج الغريب ، هي ما آل اليه
من تضاؤل الصداق من اربعمائة الف دينار الى اربعمائة درهم
ودينار ، وذلك بانحطاط كل مائة الف دينار الى درهم واحد
وتبقى عشرة دراهم وهي الصرف الشرعي للدينار ، فعلى هذا
كان المهر اربعمائة درهم متداولة وعشرة دراهم شرعية . والناس
حريون بانباع هذا الفحال وساو ك هذه السبيل من حظ المهر الى
ذلك المقدار الضئيل ، تشجيعاً على الزواج فان قوامه التحاب
والتراضي وتوسم السعادة وتوسم طريقها ، لا كثرة المهر واظهار
أدوات الفخر ولا استكثار من النثار والاثاث ، فان ذلك كله
زائل أو كالفاني اذا لم يكن تواد وتخالص ونصافي ، فليس الزواج
بتجارة عند ذوي البصائر ولا حرفة عند أولي العقول الراجحة بل
هو الجمع بين جسمي روحين متحدتين في الهوى والمشرب وان
كانتا مفترقتين ، ثم التقتا بالزواج لقاء دائماً .

السيدة قرّة العين ارجوان

السيدة قرّة العين ارجوان ام الخليفة المقتدي بأمر الله ، والارجوان في الاصل صيغ احمر شديد الحمرة ونوع من الشجر له ازهار حمراء احسن ما تكون من حيث الجمال ، وكل لون يشبهها فهو ارجوان . والظاهر ان السيدة ارجوان سميت باسم ذلك الزهر الجميل او بالياقوت الارجواني وهو الشديد الحمرة .

كانت هذه السيدة جارية أرمنية ادخلها الرق قصر الخليفة القائم بأمر الله العباسي ببغداد ، فان هذا الامام اشتراها لابنه الوحيد ذخيرة الدين أبي العباس محمد ولي عهد الخلافة الوارث المنتظر للامامة . وفي سنة ٤٤٧ هـ مرض ذخيرة الدين وتوفي وله من العمر سبع عشرة سنة . فعظمت الرزية بوفاته وتفاقت المصيبة ، لانه كان الولد الذكر الأوحد للقائم بأمر الله ولم يبق للخلافة ولي عهد ، واستشعر الناس بانتقاص الدولة العباسية وانقضاء امرها وانقطاع نظامها ، اما سائر العباسيين من غير البيت الذي فيه الخلافة فقد كانوا خالطوا العامة وتزوجوا فيهم وجروا بحرى السوق بينهم ، فلم يكن ممكناً استخلاف احد منهم لان العرب ما داموا عرباً يشترطون السيادة والشرف في ملوكهم وخلفائهم . ثم علم أن السيدة قرّة العين ارجوان حبلى من ولي العهد فتشوقت النفوس ما يكون من ذلك وتشوقت الى معرفة ما

ستلده من ذكر او انثى ، فولدت بعد ذلك بخمسة اشهر ولداً
ذكراً فسموه عبد الله وكنوه بابي القاسم ، وهو الذي صار
خليفة بعد وفاة جده القائم بأمر الله وتلقب بالمقتدي بأمر الله ،
وسيرته حسنة مشهورة عند مؤرخي العراق وكانت هذه الولادة
التي هياها الله تعالى لقرة العين ارجوان سبباً لتعظيمها وتكرمها
وعدها من النساء المباركات ، فيها حفظ بيت الخلفاء العباسيين وبها
دامت الخلافة بعدما اوشكت ان تنبت وكان يوم الولادة من
أيام السرور والاعياد ببغداد وسارت فيه البشائر الى البلاد الاسلامية
ولقب المولود المبارك الجديد بـعده الدين .

وفي سنة ٤٥٠ هـ استولى على بغداد ابو الحارث ارسلان البساسيري
القائد التركي المشهور وخطب فيها للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ،
واصبح العراق من ممالك الدولة الفاطمية ونفي القائم بأمر الله
العباسي الى بلدة حديثة (عانة) واستقرت والدته الخليفة قطر الندى
وكانت ارمينية ايضاً ، وقرة العين ارجوان وذهب ابنها عدة
الدين مع عمته وجدته في غمار الناس ببغداد ، وكان عمر عدة الدين
دون اربع سنوات ، وظلوا يبيتون في المساجد وينتقلون من
مسجد الى آخر مع المكدين والشحاذين ، والقائد ارسلان
البساسيري قد اذكى عليهم العيون والمتجسسين ببغداد فلم
يظفر بهم ، ولم يكونوا يشبعون من الحُبز ولا يدفأون من
البرد ، ثم اتصلوا سرّاً باحد اولياء الخلافة العباسية يعرف بابن
المحلبان فخرج بهم من بغداد الى نواحي سنجار ثم حملهم الى
حرّان من بلاد الجزيرة .

اما ارجوان قرية العين وقطر الندى فقد ظهر على امرها
ارسلان البساسيري لان الثانية - أعني قطر الندى - كتبت اليه
من مكان استتارها ببغداد رقعة تشكو فيها الضر اليه وتشرح ما
لحقها من الازى والفقر حتى ان القوات يتعذر عليها وكانت قد
ناهزت التسعين واحدودت . فافرد لها القائد الفاتح داراً في
الحريم الطاهري ، وكانت الحريم الطاهري على دجلة فوق المنطقة
بين الكاظمية وبغداد . ورتب لها جاريتين تخدمانها
واجرى لها راتباً من الخبز واللحم ، وبقيت في حكمه هي
والسيدة ارجوان كالأسيرتين ، فلما هرب من بغداد وانحدر الى
واسط حملها معه كالرهائن ، ثم عاد السلطان طغرل بك الى العراق
وقاقل ارسلان البساسيري فقتله ثم اعاد من واسط الى بغداد في ذي
الحجة من سنة ٤٥١ والدة الخليفة ومعه ارجوان ووصال قهرمانة
الخلافة . هذا ما جرى على السيدة ارجوان من مصائب الزمان
وطوارق الحداث . فقد كانت هاربة مطلوبة مروعة معوزة محتاجاً
قد فارقت طفلها وضيعت فلذة كبدها ثم ردها الله تعالى الى مقر
عزها ومحط كرامتها ومقام نعيمها ، الا انها بقيت متشوقة الى
اخبار عزيزها عدة الدين الذي كتب الله له ان يكون خليفة
للمسلمين واميراً للمؤمنين . وفي يوم الثلاثاء تاسع جمادى الآخرة ورد
بغداد الامير عدة الدين ابو القاسم مع جدته وعمته في رعاية المخلصان
المذكور ، وخرج الناس لاستقبالهم وكان دخوله في زيزب كبير في
دجلة ، فلما بلغ الزيزب مشرعة باب الغربية اي شريعة شارع
السموءل الحالية ، قدم لعدة الدين فرس فحمله ابن المخلصان على كتفه

واركبه الفرس ودخل به دار الخلافة وسلمه الى جده الخليفة
القائم بأمر الله ، فشكره الخليفة وقرت عين ارجوان بأوبة ولبيها
وثابت اليها طمأنينتها وتمت سعادتها وغبرت طوال خلافة ابنها من
سنة ٤٦٧ الى سنة ٤٨٧ وبقيت في الحياة بعده فادركت خلافة
حفيدها المستظهر بالله وخلافة ابنه المسترشد بالله ورأت البطن
الرابع من اولادهما وتوفيت في سنة ٥١٢ . وهي اول سنة من
خلافة المسترشد المذكور ودفنت في دار الخلافة ثم نقلت في السنة
نفسها الى مقبرة الخلفاء العباسيين ، بالرصافة ، على مقربة من قبر
الامام ابي حنيفة كما ذكرنا غير مرة . وكانت هذه السيدة كثيرة
البر والمعروف ذكرها ابن الساعي في كتاب « من ادركت
خلافة ولدها » وحجت بيت الله الحرام ثلاث مرات ، والظاهر لنا
انها كانت من السابقات الى اقامة الآثار الدينية ، وان من جئ
بعدها من سيدات البلاط العباسي قلدها في ذلك ، فاننا الدارسين
لحطط بغداد العتيقة نجد اسم السيدة « رباط ارجوان » المشيد
ببغداد يتروء كثيراً في تاريخ هذه المدينة ، يتروء مع اسم درب
كان لرباط فيه اسمه « درب زانخي » وهو اسم سرياني نبطي من
اسماء الانباط الذين كان لهم اتصال بضياع ارض بغداد الشرقية
الحالية قبل ان تبنى ومدن ، فمن ذلك ما ورد في ترجمة ابي الازهر
محمد بن محمد بن حمود المقرئ الصوفي . كان هذا من اهل واسط
وتعلم بها قراءة القرآن المجيد بالروايات ثم قدم بغداد واقام في
رباط السيدة ارجوان والدة الخليفة المذكورة بدرب زانخي وبقي
فيه مقبلاً الى ان توفي سنة ٥٧١ هـ . ومن ذلك ما ورد في ترجمة

ابي شجاع محمد بن منجج ابن عبدالله الواعظ الصوفي تفقه ببغداد
على مذهب الشافعي ثم درس بالجزيرة واتقن الفقه وعلم الخلاف ثم
خرج الى بلاد الشام وتولى القضاء ببعلبك واقام بها مدة ثم عاد
الى بغداد وسكن الرباط الارجواني بدرب زانخي على قدم النصف ،
وكان يفني ويحدث ويعظ وله شعر حسن منه :

سلام على وادي الفضا ما تناوحت على خفتيه شال وجنوب
احمل انفاس الخزامي فحمة اذا آن منها بالعشي هبوب
لعنري لئن شطت بنا غربة النوى وحالت صروف دوننا وخطوب
وبددنا ريب الزمان وخيلت آياس تلاقبكم الى شعوب
فما كل رمل جثته رمل عالج وما كل ماء عمت فيه شروب
رعى الله هذا الدهر كل محاسني لديه وان اكثرتم ذنوب

ومن شعره قوله :

عنيري من زمن كلما شددت عرى املي حلها
عرائس فكري قد عنست لاني عدمت لها اهلها
ونفسي تنهل من مورد ترى الموت في الورد اذعلها
عليها من الدهر اتقاله ولا يغلط الدهر يوماً لها

توفي ابن المنجج في سنة ٥٨١ وصلي عليه برباط الشيخ ابي
النجيب السهروردي الذي قبره فيه ، وهو قبالة دار الضباط الحالية
على التحقيق . ولعنري لئن لم يقرن اسم هذا الرباط في التاريخ
إلا الى اسم هذا الفقيه الفاضل الشاعر الواعظ ليستحقن التمجيد
وتخليد التاريخ ، فكيف وقد كان مباداة للفضلاء ومن شيوخه اي
الذين اداروا اموره - كما يقال اليوم - كريم الدين ابو منصور

الحسين بن محمد بن ابراهيم الكاتب كان شيخاً لطيفاً محباً للعلم
فاضلاً كتب بخطه كثيراً من الكتب . وتوفي في سنة ٥٩٦ هـ .
ومنهم ابو منصور الحسن بن علي بن محمد المعروف بابن الكريم
الصوفي وهو والد محمد بن الكريم مؤلف كتاب الطببخ احد الكتب
المهمة في الثقافة العربية ، وقد توفي سنة ٥٩٦ وتولى بعده الرباط
المذكور الشيخ عفيف الدين اسفنديار بن الموفق البوشجي المنشئ
المحدث الزايع الحظاظ الشاعر ، وقد تولى كتابة ديوان الانشاء
للدولة العباسية ببغداد في المحرم من سنة ٥٨٤ وصرف عنها في
السنة نفسها ومن شعره :

وقد كنت مغري بالزمان واهله	ولم ادر ان الدهر بالغدر دائل
ارى كل من طارحته الود صاحباً	ولكنه مع دولة الدهر مائل
ورب اناس اكتب الحظ ودهم	وما فالي منهم سوى المذق نائل
تعاطوا ولائي ثم حالوا سامة	وحال بني الايام لا شك حائل
واعظم شيء سامه المرء دهره	حبيب مضاف او خليل مواصل
اسادتنا قد كنت احظى بوصلكم	واجني ثمار العيش والدهر غافل
وما خلت ان البين يصدع شملكم	ولا أنني عنكم مدى الدهر راحل
وثالله ما فارقتكم عن ملالة	ولكن نبت بي في المقام المنازل
قطعت القلا عنهم حين اضعني	فاقفرون عن مثلي وهن اواهل
واني اذا لم يعمل جدي ببلدة	هداني الى اخرى السرى والعوامل
سيعلم قومي قدر من بان عنهم	وتذكرني ان عشت تلك المعائل

ومن شعره :

كل له غرض يسعى ليدركه والحري يجعل ادراك العلى غرضه

يهين امواله صوناً لسؤدده ولم يصن عرضه من لم يهين عرضه
ومنه :

الدهر بحر والزمان ساحل والناس ركب واحل ونازل
كأنهم سيارة في مهمه مكاره الدهر لهم منازل
وقد توفي اسفنديار سنة ٦٢٥ في خلافة المستنصر بالله ودفن في مشهد
عبيد الله العلوي المعروف بأبي رابعة شرقي الاعظمية .
هذا مختصر ترجمة السيدة قرّة العين ارجوان وهذا بعض اخبار الرباط
الارجواني ولئن استرسلنا في تاريخ هذا الرباط لنخرجن كتاباً مستقلاً
فيه من الادب والشعر والتراجم ما تمثلنا ببعضه . وهذه ناحية من نواحي
الادب العربي مجهولة كعدة نواح اخرى بقيت كالروضة الانف تحتاج الى
استقصاء واستقراء وتبحث وتفحص ولا سيما الادب العراقي فانه لا يزال
مغموراً مطموراً وما فتيء حظه من البحث متزوراً فعسى ان يكون له
بعث ودراسة .

السيدة بنت ملكشاه السلجوقية

زوجة الخليفة المقتدي بأمر الله

هي إحدى الحواتين السلجوقيات بنت جلال الدولة ملكشاه ابن الب أرسلان السلجوقي ، أشهر الملوك من بني سلجوق ، وزوجة الخليفة عبد الله المقتدي بأمر الله العباسي ، وقد اشتهرت بلقب « خاتون » ولم يشتهر اسمها ، وهذا الامر من غرائب التاريخ الاسلامي ، والا فكيف يجهل المؤرخون المعروفون اسم سيدة لهج بذكرها التاريخ ، وكانت من كبيرات السيدات في العالم فضلاً عن الممالك الاسلامية ، والدول الشرقية .

كان الخليفة المقتدي لأمر الله معاصراً لملكشاه السلجوقي ، وكانت أمور العراق وغيره من البلاد الاسلامية موكولة الى السلطان المذكور ، وأتباعه كنظام الملك الوزير الشهير ، ويخطب له على منابرها بعد الخليفة المقتدي .

وفي السنة السابعة من خلافة المقتدي ، أي سنة ٤٧٤ هـ خرج الوزير فخر الدولة ابو نصر محمد بن محمد بن جبير وزيره من بغداد ، فاصداً اصفهان ليخطب الى السلطان ملكشاه ابنته على الخليفة المقتدي بأمر الله ، وكان معه هدايا وألطف تساوي عشرين ألف دينار على التقريب ، فلما وصل الى اصفهان خرج نظام الملك الطوسي والأمراء فاستقبلوه ، وبعد ان أقام فخر الدولة ابن جبير

شهرًا باصبيان ، كلم نظام الملك في خطبة ابنة السلطان على
الخليفة ، فقال له نظام الملك ، « ما استقر في هذا شيء فان رأيتم
ان تجربوا الطلب من توكان خاتون والدة الصبية » .
وكان نظام الملك أراد ان لا يدخل نفسه في القضية ، فأمره
السلطان ملكشاه ان يمضي مع وزير الخليفة الى زوجته توكان
خاتون ، ليخاطبها في زواج ابنتها ، فذهبا معاً الى أم البنت فقال
لها وزير الخليفة : « ان امير المؤمنين راغب في ابنتك » ، فقالت له :
« قد رغب اليّ في هذا ملك غزنة وملك الحانية بما وراء النهر ،
وطلبوها وخطبوها لأبنائهم ، وبذل كل واحد منهم اربعمائة الف
دينار ، فان اعطاني امير المؤمنين هذا القدر من المال فهو أحق
بها منهم ، وزواجه أحب إلي » فقال لها الوزير : « رغبة امير
المؤمنين لا تقابل بهذا » ، وكانت أرسلان خاتون زوجة القائم بأمر الله
التي تحدثنا بسيرتها في فصل سابق ، حاضرة عندها فعرفت ما
يحصل لها من الشرف والفخر في تزويجها ابنتها بالخليفة ، وقالت
لها : « ان هؤلاء كلهم عبيد الخليفة وخدمه ومثل الخليفة لا يطلب
منه المال » .

وجرت في ذلك مراجعات ، انتهت بقبول الطلب ، بشرط
ان يعجل وزير الخليفة المقتدي بأمر الله خمسين الف دينار عن حق
الرضاع ، وكان هذا من عادة الاتراك إذ ذاك عند الزواج ،
وان يكون المهر أي الصداق مائة الف دينار ، فقال لها الوزير :
« ما في صحبتنا مال معجل الا أننا نستطيع ان نحصل ها هنا
عشرة آلاف دينار ، ثم نبعث من بغداد بأربعين الف دينار » ،

فوقع الرضا بين الطرفين وشرع الوزير في تحصيل عشرة الآلاف
التي وعد بها فلم يستطع ذلك ، وعلم السلطان ملكشاه بعجز الوزير
عن أداء المبلغ فأمر بتأخيرته وتأجيله ، وان يرسل بالمبلغ كله
من بغداد .

واشتوت تركان خاتون أم البنت ايضاً على الخليفة ، ان
يرسل الى اصبهان امه وعمته ومن يجري مجراها من اهل بيته ،
والمختشين من اهل دولته ، وتستقدم هي خواتين غزنة وسمرقند
وخراسان ووجوه البلاد ، ويكون العقد بمحضر هؤلاء جميعاً .
واشتوت فوق ذلك ان لا تبقى في دار الخلافة سرية ولا حظية
ولا قهرمانة ، وان يكون مبيته عند ابنتها فقط . فاجابها
الوزير الى ذلك كله ، واخذ يد السلطان على ذلك نيابة عن
زوجته ، وعاد الى بغداد وورد التبشير يوم الثلاثاء حادي عشر صفر
من سنة ٤٧٥ هـ ، فكان يوم سرور وحبور ^{١٥٨} ~~١٥٩~~

وفي سنة ٤٨٠ هـ اي بعد الخطبة بخمس سنوات ، دخلت
بغداد بنت السلطان ملكشاه مع امها تركان خاتون ونزلتا دار
المملكة ، وكان السلطان ملكشاه ببغداد ايضاً بعد فتحه مدينة
حلب وغيرها من بلاد الشام والجزيرة ، وفي المحرم من تلك
السنة نقل جهاز الخطيبة من دار المملكة في المحرم اي اراضي
العيوانية الحالية ، الى دار الخلافة العباسية ، وكان على مائة
وثلاثين جملاً بحملة بالديباج الرومي ، وفي ذلك مقادير عظيمة من
اشياء الذهب والفضة ، وعلى اربعة وسبعين بغلاً بحملة بالديباج
الملكي واجراسها وقلائدها من الذهب والفضة ، وكان على ستة

بفال منها اثنا عشر صندوقاً من فضة لا يقدر ما فيها من الجواهر
 والخلي ، وكان في الجهاز ثلاث عماريات اي كجارات ، وكان
 الخدم ونحو ثلاثة آلاف فارس يسيرون امام الجهاز والبوقات
 والطبول تضرب . ومع الموكب ثلاثة وثلاثون فرساً من الخيل
 الرائعة عليها سروج الذهب المصعة بانواع الجوهر ، ومهد عظيم
 كثير الذهب ، وسار بين يدي الجهاز الامير سعد الدولة كوهرائين
 والامير برسق ، وكانا من اعظم امراء الدولة السلجوقية .
 ولما وصل الجهاز محلة نهر المعلقة أي محل شارع المأمون وما
 حوله من محلة باب الآغا ، نثر الناس على السائرين في موكب
 دنانير وثياباً اعلاناً منهم بالفرح والسرور . وكان الناس قد
 أمروا - على عادة ذلك الزمان - بتعليق اسباب الفرغ وتزيين
 بغداد ، استعداداً لزفاف ابنة السلطان ملكشاه الى الخليفة المقتدي .
 وبعد وصول الجهاز بخمسة ايام ارسل الخليفة وزيره - وكان
 يومذاك ظهير الدين ابوشجاع محمد قدوة الوزراء ، الى تركان خاتون
 عشية الجمعة سلخ المحرم من السنة المذكورة ، وكان بين يديه نحو
 ثلاثمائة شمعة موكبية ، ومثلها مشاعل من النفط ، والشمعة الموكبية
 كبيرة جداً ، ويسمى بعضها بعض المؤرخين باسطوانة الشمع اي شمعة مثل
 الدلك ، ولم يبق دكان في خريم دار الخلافة اي محلات النصارى
 ومحلة الرواق وسوق العطارين الحالية ، الا وقد اشعل فيها شمعة
 او شمعتان او اكثر من ذلك ، وكانت مع الوزير ، المملوك ظفر
 مملوك الخليفة ، ومعه محفة وهي كالتختروان ، لم ير الناس مثلاً .
 فلما وصل الوزير الى دار المملكة قال لتركان خاتون أم البنين :

سيدنا ومولانا امير المؤمنين يقول : « ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها ، وقد اذن في نقل الوديعة الى داره العزيزة » فقالت : « السمع والطاعة للمراسم الشريفة » . وحضر وزير السلطان نظام الملك ومن دونه من ارباب الدولة السلجوقية كافي سعد المستوفي والامراء ، ومع كل منهم شموع ومشاعل ، وحضرت نساء الامراء الكبار ومن دونهن كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وتجميلها ، وترايبنها وتحاسينها ، وبين أيديهن الشمعات الموكيات والمشاعل ، يحملها الفرسان على خيلهم ، ثم جاءت في آخر هذا الموكب الفخيم المنير الكبير الخاتون ابنة السلطان ، في حفّة مجلّة عليها كثير من الذهب والجواهر مرصعاً فيها ، وقد أحاطت بها مائتا جارية تركيات على الخيل المطهّمة ، وسار موكب العرس والعروس من دار المملكة في ارض العمواضية الحالية الى دار الخلافة تحت شارع السموّال ، وأدخلت على الخليفة المقتدي بأمر الله ، وكانت تلك الليلة من الليالي البديعة الجميلة في تاريخ بغداد ، وفي تلك الليلة خرج السلطان ملكشاه والد الخاتون ، الى الصيد خارج بغداد ، على عادة الملوك إذ ذاك يوم ترويح بناتهم ، وفي صباح تلك الليلة صنع الخليفة المقتدي لأمراء السلطان وعسكره وليمة عظيمة ، استعمل فيها اربعون الف من من السكر ، وقيمة ذلك السكر وحده ثمانية آلاف دينار ، وخلع على الأمراء والكبراء وأرسل الى توكان خاتون أم زوجته بخلع عظيمة ، وإلى جميع الخواتين على حسب أقدارهن . وعاد السلطان ملكشاه بعد الصيد الى بغداد ، ودخل محلات

نهر الميلى وشاهد التعاليق المعلقة للفرح بزواج ابنته ، ونثرت عليه
مقادير كبيرة من الدنانير ، ثم رتب لابنته زوجة الخليفة دبواناً
ووزيراً يعرف بمعر الملك وكانباً يسمى ابا الحسن بن حكار ، وبعد
ذلك خرج من بغداد قاصداً الى اصفهان .

ومن سمع اخبار هذا الزواج العظيم وانباء هذا التخرق في
الانفاق ، والتجمل الكثير في أثاث الجهاز ، ظن ان ذلك هو
السعادة والرفاهة والهناء بأعيانها ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ،
فان هذه الخاتون ولدت في شهر ذي القعدة من سنة « ٤٨٠ »
اي سنة زواجها ، ولداً ذكراً فسماه ابيه الخليفة المقتدي « جعفر »
وكناه بأبي الفضل ، وزينت بغداد لأجل ذلك ، وكان حب
المقتدي لها انتقل الى ابنها وصار الحب الزوجي حباً بنوياً ، وهذا
ما لا تصبر عليه النساء ، فانهن يردن من أزواجهن حباً مزدوجاً
لهن ولأولادهن معاً .

واخذت الخاتون تشكو زوجها الخليفة الى امها وابيها ،
وتذكر لها انه كثير الاطراح لها والاعراض عنها ، واكثر في
ذلك فبعث السلطان ملكشاه الى بغداد سنة ٤٨٢ رسولين هما
برزان وصواب ليطلبيا الى الخليفة الاذن في سفر الخاتون الى اصفهان عاصمة
الدولة السلجوقية فاذن الخليفة في ذلك بعد التلکؤ ، فخرجت من بغداد
وكان ذلك بعد سنتين من زواجها ، واخذت معها ابنها الامير ابا الفضل
جعفر ابن المقتدي بأمر الله ، وخرج لتشييعها سائر ارباب الدولة ، وشيعها
الوزير ابو شجاع المذكور الى بلدة النهروان تحت بعقوباء ، وكان يسير بين
يدي محفة الامير ابي الفضل ، هو والامير سعد الدولة كوهرايين وخدم

دار الخلافة وسار معها الى اصفهان النقيباني ، نقيب بني العباس ونقيب آل
ابي طالب ، فوصلت الى المدينة المذكورة وبقيت فيها الى ذي القعدة من
السنة المذكورة ، فجدرت هناك وتوفيت بالجدري ووصل نعيمها الى بغداد
فجلس الوزير للعزاء سبعة ايام ، واكثر الشعراء من الرثاء لها ببغداد . وكانت
هذه الحادثة الأليمة بما اوهى الاتصال بين الخليفة المقتدي ، والسلطان
ملكشاه ، حتى عزم السلطان على تشييت امر المقتدي ، واخر اجه من بغداد
الى حيث يشاء ، فحال الموت دون انفاذ امره فانه - اعني السلطان
ملكشاه - توفي سنة ١٨٥ هـ ودفن في مقبرة الشويكري اي مقبرة الشيخ
جنيد الحالية ، هذا ما وقع البناء من سيرة الخاتون ابنة السلطان ملكشاه
السايرة ...

السيدة بنت ملكشاه الثانية

زوجة الخليفة المستظهر بالله العباسي

هي الخاتون بنت ملكشاه الثانية ، زوجة الخليفة المستظهر بالله ابن المقتدي بامر الله ، وأخبارها على قلتها عجيبة غريبة ، وزوجها الخليفة احمد المستظهر بالله ولي الخلافة في سنة ٤٨٧ ، بعد وفاة أبيه المقتدي بامر الله ، وكان - أعني المستظهر - ابن ست عشرة سنة وشهرين حد ولايته الخلافة ، وفي سنة ٥٠٢ أراد أن يتصل بالسلاجقة بالمصاهرة ، وكان سلطانهم محمد بن السلطان ملكشاه ، وكانت في حمايته الخلافة العباسية ، فخطب اليه الخليفة المستظهر بالله اخته الخاتون بنت ملكشاه الثانية ، فاجابته إلى خطبته ، وأجري عقد الزواج بمدينة اصفهان عاصمة الدولة السلجوقية ، في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان سنة ٥٠٢ المذكورة ، وكان وكيل الخليفة وزير السلطان محمد ، وهو نظام الملك الصغير احمد ابن نظام الملك الكبير ، وخطب خطبة الاملاك الفقيه ابو العلاء صاعد بن محمد الحنفي النيسابوري ، على صداق مقداره مائة الف دينار ، على جاري عادة الخلفاء والسلاطين إذ ذاك ، ونثر في العقد دنائير وجواهر ، وبقيت الخاتون باصفهان حتى سنة ٥٠٤ . ففيمها بعث الخليفة المستظهر بالله القاضي زين الاسلام محمد بن نصر الهروي ، الى اصفهان لاستحضار زوجته الخاتون ، وفي تلك السنة

في يوم السبت الثامن والعشرين من رجب منها جيء بها الى بغداد ، وكان اخوها السلطان محمد بن ملكشاه ببغداد ، فنزلت عنده بدار المملكة في ارض العيواضية الحالية ، ثم نقل جهازها في شهر رمضان ، على مائة واثنين وستين جملاً وسبعة وعشرين بغلاً ، وكان في الجهاز جوار مزينات يمشين بين يدي محفة الخاتون ، وجنائب ومههور ، وزينت بغداد وغلقت الاسواق ونصبت القباب ، وهي كأقواس النصر والظفر في عصرنا ، وتشاغل اهل بغداد بالفرح ، وكان زفاف الخاتون الى المستظهر بالله في ليلة العاشر من شهر رمضان وكانت ليلة زفافها من ليالي السرور العظيمة ، وكان للمستظهر زوجة اسمها ست السادة نزهة وكانت صفراء .

هذه اخبار زواج الخاتون وزفافها ، وهي كما يسمع الملقى سمعه ، مختصرة مقتضبة ، لا تفصيل فيها ولا تلخيص ، فالتواريخ التي تحت يدينا لم تذكر اسمها ولا تاريخ مولدها ، ولا اوصافها وشماثلها ، وبزواجها انتقلت من بيت السلطنة الى بيت الخلافة ، فكان ذلك اشد خفاءً لأخبارها ، واعظم سترّاً لأحوالها ، على أننا نفتش التواريخ تفتيشاً دقيقاً ، ونتفحصها تفحصاً محكماً ، ونلتقط الأخبار التقاطاً ، وقد وجدنا خبراً لهذه الخاتون زوجة المستظهر بالله في حوادث سنة ٥١٧ هـ ، وهي سنة بناء السور على بغداد الشرقية ، اي بغداد التي كان يبتدىء سورها من فوق القلعة نحو الشرق الى جهة قبر الشيخ عمر السهروردي ، ثم باب الشيخ حتى الباب الشرقي ، فان الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله وامه نزهة ضرة الخاتون المذكورة ، هو الذي تولى الخلافة

بعد أبيه ، وكانت وفاة أبيه سنة ٥١٢ هـ ، فالحاتون أذن عاشت
مع زوجها الخليفة المستظهر ثمانى سنوات ، وتوفي عنها فبقيت أيتما ،
وكان لها مال واقطاع أي مقاطعات ، وسلطة كبيرة لأن
أخوتها كانوا سلاطين العالم الشرقي ، وهم السلطان محمد الذي
ذكرناه ، والسلطان بركيارق والسلطان سنجر ، أجل ورد
ذكرها في خبر بناء السور سنة ٥١٧ هـ ، وتفصيل ذلك أن الخليفة
المسترشد بالله أمر في هذه السنة ببناء السور ، ليحصن بغداد
ويعيد الى الدولة العباسية استقلالها ، لأن الدفاع داخل الاسوار
كان من قواعد الحروب وضروب الاعتصام في ذلك الزمان ،
وكان أهل بغداد يعملون في السور يبني فيه أهل كل محلة منهم
اسبوعا ، ويخرجون بالطبول والصنجات والملاهي ، ومن آثار
ذلك السور باب الظفرية المعروف اليوم بالباب الوسطاني ، ورأى
الخليفة المسترشد في تلك الايام فرصة لظهور أبنائه وابناء اخوته ،
وكانوا اثني عشر صبيا ، فأذن للناس ان يقيموا معالم الفرح ،
ويعلقوا ادوات السرور وآلات الابتهاج ، فعلقوا الشياح الديباج
والجواهر ، وظهر لهم من ذلك منظر رائع الجمال والمال ،
وعملت الحاتون بنت ملكشاه زوجة الخليفة المستظهر بالله ، قبة
بباب النوبي ، والقبة كما قلنا تشبه قوس الظفر في عصرنا ، وباب
النوبي كان احد ابواب دار الخلافة العباسية ، فوق أرض جامع
الحاصكي بقليل ، وعملت قبة ثانية بدار الدواب ، وهو درب
محلة الرواق ، وكان في القبة غرائب منجوتة وحلل عجيبة ، ونصب
عليها ستران من الديباج الرومي ، مقدار كل واحد منهما عشرون

ذراعاً في عشرين ، وعلى أحدهما اسم الخليفة المتقي لله وعلى الآخر اسم المعتز بالله ، وأظهر الناس أشياءهم الخبوءة وجواهرهم المكنوزة ، وعرضوها سبعة أيام بلياليهن .

وفي سنة ٥٢٦ في خلافة المسترشد بالله ، تكلم أهل بغداد في الخاتون المذكورة بسبب شاب بغدادى يعرف بابن المهتر أي رئيس الفراشين ، فقتل الخليفة المسترشد ابن المهتر المذكور ، وأظهر للناس أنه هرب ، وأحضر بملوك الخاتون واسمه نازح أو هو مصحف الاسم فقيل له : (انت حافظ الخاتون وقد قذفت بالزنا مع ابن المهتر) فصفعوه وأخذوا خيله وقريته ، وأما الخاتون فإن ابن زوجها الخليفة المسترشد بالله ، أخذ منها مقاطعتها ، وطرد خدامها ومماليكها ، وأقام معها في دارها من يحفظها ، وكتب إلى أخيها السلطان سنجر بالقضية ، وكان سنجر سلطان خراسان أكبر السلاطين من بني سلجوق إذ ذاك ، يستأمره في أمر اخته الخاتون ، واشتهر أمرها بين الناس ، وكتبت هي إلى أخيها السلطان سنجر تشكو المسترشد ، وإذا كانت القضية تمس عرض الامبراطورية السلجوقية ، فضلاً عن عرض الخلافة العباسية ، قامت بين الدولتين عداوة زرقاء ، ونشأ حقد وتضاغن ، نسي فيه الدين وتزلزل فيه اليقين ، فقد قيل إن السلطان سنجر كتب إلى اخته ببغداد أنه عازم على الفتك بالخليفة المسترشد بالله ، بما فضح البيت السلجوقي ، فضيحة لا يزول ذكرها على مر الدهور وكر العصور ، وعلم الخليفة المسترشد بالله إن السلطان سنجر في جانب اخته عليه ، فإنه أخذ منها الكتاب الذي أرسل به إليها

أخوها ، وهيجته ما رآه فيه من التوعد والتهدد ، فجهله ذلك على
الخروج الى قتال السلطان سنجر ، وقطع خطبته ببغداد ونواحي
العراق الاخرى ، والخطبة بالسلطنة لمسعود بن محمد بن ملكشاه ،
ومن بعده لداود بن محمود بن محمد بن ملكشاه وهو ابن أخي
مسعود ، ثم اتحد السلجوقيون الا واحداً منهم على الخليفة ،
وخرج الى حربهم فكسروا جيشه العراقي قرب همدان وأسروه ،
ثم بعثوا عليه رجالاً فقتلوه في خيمته سنة ٥٢٩ ، ومثلوا به
أقبح تمثيل : جددوا أنفه وأذنيه وتركوه مجرداً غريباً ، وكان
في ذلك التمثيل دليل على الانتقام للعرض على نحو ما تفعل
الأقوام الوحشية حتى اليوم ، والا فليس فوق القتل واعدام
الروح فعل يقام له وزن ، ويكون له أثر ، وأذى ، وانهم
السلجوقيون بهذه الجريمة الشنيعة الاسماعيلية الباطنية ليخلصوا منها ،
وبقيت الخاتون ببغداد بعد قتل المستشهد بالله ، وكان لها أثر
محمود في حصار بغداد سنة ٥٣٠ ، فأتى السلطان مسعوداً
حاصر فيها الخليفة الراشد بن المستشهد ، وخاف اهل بغداد فحصل
كثير منهم اموالهم الى دار الخليفة ودار الخاتون ، ثم خرج
الخليفة الراشد من بغداد رابع عشر ذي القعدة بعد ان سلم دار
الخلافة ومفاتيحها الى الخاتون ، فأخرجت اصحابها لحفظ باب النوي
من ابواب دار الخلافة ، وقد قلنا انه كان فوق ارض جامع
الحاصكي بقليل ، وترك الراشد نساءه وأولاده عند الخاتون ايضاً ،
ثم دخل السلطان مسعود بغداد ظافراً وأخذ جميع ما كان للراشد
من المال والمقاطعات ، فمضت اليه الخاتون وهو يدار المملكة

ومرت في مضيها بسوق الثلاثاء ، اي سوق باب الأغا الحالي وما
يتصل به من الاسواق ، وبين يديها القواد والجنود الاتراك
واستعطفته واسترحته ، فرد على أهل الراشد جميع ما اخذه على
التقريب ، وحرر لهم ما كان في ملكهم من المقاطعات ، وعظمت
منزلة الخاتون بعد ذلك حتى استوزرت لنفسها صاحب مخزن الخلافة
وكان كوزير المالية ، وكانت لها مقامة محمودة ايضاً في سنة ٥٣٢ ،
فان السلطان مسعوداً استولى على بلاد بني ديبس الاسدي المزيدي ، من
الحلة وغيرها من سقي الفرات ، وبقوا في ضيق شديد فأرسلوا اختهم
سفرى بنت ديبس ابن صدقة ملك العرب ، الى الخاتون زوجة
المستظهر المذكورة تستشفع بها الى السلطان مسعود ، ليعيد عليها
بعض ما اخذ منها وشكت اليها الضرر ، وكانت سفرى بنت
ديبس هذه من زوجته كهار خاتون بنت عميد الدولة محمد بن
محمد بن جبير الوزير ، وكانت سفرى في غاية الجمال ، فوصفتها
الخاتون للسلطان مسعود فقال لها : « أحضرها عندك حتى أحضر
القضاة واتزوجها » ففعلت وتزوجها وأمر الوزير بان تزين بغداد
لزواجه سبعة أيام ، فظهر في التزين فساد عظيم بضرب الطبول
والزمر والحكايات اي التمثيل الهزلي ، وشرب الخمر جهاراً .
هكذا قال احد المؤرخين .

وفي سنة ٥٣٣ وصل رسول من طغرل بن قاورد
السلجوقي ملك كرمان ، الى السلطان مسعود بخطب اليه عمة
أبيه الخاتون زوجة المستظهر بالله ، وكان بين موت زوجها
الخليفة وخطبتها الثانية إحدى وعشرون سنة ، وكان مع الرسول

تحف حسنة ، فأرسل السلطان مسعود وزيره الى دار الخاتون
فأستأذنها في تزويج نفسها بالملك المذكور ، فأذنت في ذلك ، فحضر
القضاة دار المملكة ووقع الاملاك في ثامن عشر صفر من السنة
المذكورة ، على صداق مقداره مائة الف دينار ، ونثرت فيه
الدراهم والدنانير - على جاري العادة - ، ثم سورت الخاتون
الى كرمان فماتت عند وصولها الى هناك ، وذلك سنة ٥٣٦
في خلافة المقتفي لامر الله ، وورد الخبر ببغداد بموتها فعمل له
عزاء قعد فيه يومين في الديوان ، قال احد المؤرخين : وكانت
دارها ببغداد حياً للناس ولها هيبة واصحاب في خدمتها ، وبقيت
صفحات اخبارها - على قلبها - كما قلنا عجيبة غريبة ، فانها
أثرت في السياسة وفي التاريخ وحدثت عداوة بين بيت الخلفاء
وبيت السلاطين السلاجقة ، بشذوذ سيرتها واثباتها امراً اذا ،
أما زوجها الثاني طغرل بن قاورت السلجوقي ملك كرمان ، فقد
توفي سنة ٥٦٥ ، أي بعد زواجه بها بتسع وعشرين سنة ، وهذا
يدل على التفاوت بين اعمارهما وعلى ان الزواج كانت اصابة
الشرف لا غير .

فاطمة خاتون

بنت السلطان محمد السلجوقي

هذه السيدة المعظمة هي فاطمة خاتون بنت السلطان محمد بن السلطان ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي . وزوجة الخليفة العباسي العظيم المقتفي لأمر الله ، بحي شرف الدولة العباسية ، ومعيد استقلالها ، ومجدد جلالها ، وقاصم ظهور أعدائها ، ورافع لواءها المنصور . انا لم نجد في التاريخ سنة ولادة السيدة فاطمة خاتون ، ولا عثرنا على شيء من نشأتها في صباها . وهي في هذا الغموض من السيرة كسائر الأميرات وبنات السلاطين والملوك فضلاً عن بنات الخلفاء . ولولا تزوج الخليفة المقتفي لأمر الله لها لطوى الزمان اسمها مع الاسماء المطوية — على جلالها ونبلها — فتاريخنا تاريخ الرجال . كان لفاطمة خاتون خمسة أخوة : محمود ومسعود وطفغرل وسليمان وسلجوق ، صار أربعة منهم سلاطين في الدولة السلجوقية ، والذي لم يخطب له بالسلطنة هو سلجوق . ولا ندري كم اختاً لها ، وكانت تقرأ وتكتب وذلك نادر في بنات تلك العصور وان كن سليلات السلاطين . وسبب زواجها أن السلطان سنجر بن ملكشاه وابن أخيه السلطان مسعوداً — أعني عمها وأخاها — بعد أن تواطأ على قتل الخليفين العباسيين الشهيدين المسترشد بالله والراشد بالله ، قبحت سمعتها ، ونفرت منها قلوب الرعايا ، وطعن

الناس على عقائدهما ، فأرادا ان ينفيا عن أنفسهما تلك الجريمة
الفضيعة ، ويسمسا من تلك الجنابة الشنيعة ، فزوجا أبا عبدالله محمد
المقتفي لامر الله فاطمة خاتون ، وطلبها اليه أن يزوج ابنته السيدة
زبيدة بالسلطان مسعود أحد السلطانين الطالبين ، وكانت زواج
السيدة زبيدة على قساعة زواج السيدة بنت القائم بامر الله العباسي
بطغرل بك ، اي ان لا يلامسها حتى يفرق بينهما الموت ، لانها عباسية
وهو تركي ولم يكن كفؤاً لها ، وقد أرادا بذلك ان يظهر للناس
تعلقهما بالدولة العباسية واخلصهما لبني العباس ، ومصافاتها لهم ، وهكذا
تكون اعمال المرائين ومكائد المجرمين ، يقتلون بيد ويصافحون باخرى .
وفي شعبان من سنة ٥٣١ عقد للمقتفي لامر الله على فاطمة
خاتون ببغداد ، وكان مبلغ صداقها « مائة الف دينار » وهو
صداق جد نادر في التاريخ ، وكانت وكيل المقتفي لامر الله
شرف الدين ابو القاسم علي بن طراد الزينبي العباسي ، وحضر
العقد اخوها السلطان مسعود واكابر الدولة ، ونثرت في العقد
جواهر وحب لؤلؤ ومائيل كافور وعنبر ، وفي سنة ٥٣٤ دخلت
فاطمة خاتون بغداد في صحبة اخيها السلطان مسعود ، واقامت
عنده بدار المملكة وكانت في محلة العلوازية ، ثم زفت في جمادى
الآخرة وقيل في الاول الى الحليفة المقتفي في زي عجيب وموكب
مهييب ، وكان في موكب زفافها زوجة السلطان مسعود سفري
بنت دبس بن صدقة الاسدي المزيدي ملك الحلة ، وأميرة سلجوقية
من كبيرات الاميرات والوزير شرف الدين الزينبي المذكور ،
وموكب الدولة العباسية وفيه المهد ، وهذا المهد شيء مستحدث

اتخذته الدولة العباسية في مواكبها ، على نحو سكيته بني اسرائيل ،
وزينت بغداد عشرة ايام ابتهاجاً بذلك الزواج العظيم المشهود ،
وقد وصفت هذه السيدة على قلة اخبارها بالتدبير الصائب والرأي
الحسن ، ومن اخبارها انها كانت ذات ليلة من سنة ٥٤١ مع
زوجها الخليفة في قصر من قصور دار الخلافة مشرف على مشرقة
باب الغربية ، اي شريعة المصبغة الحالية في شارع السموم ، وكانت
تعرف ايضاً بمشرقة الابريين اي باعة الابرة ، فاحترق القصر كله
من شجرة كانت بيد جارية من جواري السيدة لان نارها علقت
باطراف خيش وهو نسيج كالخفافص كان يستعمل للمراوح في
الصيف ، وخرج المقتفي وفاطمة خاتون ليلاً من القصر هرباً من
النار واحترق في القصر اثاث عظيم وآلات كثيرة وزي رائع ،
ولما اصبح المقتفي اطلق المسجونين وتصدق باموال كثيرة ، شكراً
لله على سلامته وسلامة زوجته ، وسكنت فاطمة خاتون بعد ذلك
قصرآ في دار الخلافة يعرف بدركاه خاتون اي قصر الخاتون ، وهي
زوجة المستظهر بالله العباسي ، والحلي الذي كان حوله من داخل
سور دار الخلافة عرف بالخاتونيتين ، الخاتونية الداخلة والخاتونية
الخارجية ، وكان ذلك القصر من ابنة الخليفة المستظهر بالله والد
المقتفي لامر الله ، وقد داخلت ارضه بعد ذلك فيما وراء جامع
مرجان من الشارع والخانات والعمارات والدكاكين ، ويضعب
تعيين بقعته مع هذا التغيير الكبير في خطط بغداد العتيقة ، ولا
سيما خطط دار الخلافة العباسية المتأخرة ، فانها كانت كنصف
دائرة تبدأ من مشرقة شارع السموم وينتهي قوسها على شرقي

شارع الرشيد ، وينتهي عند مشرعة السيد سلطان علي ويدخل في ذلك بساتين دار الخلافة العباسية والخير اي حديقة الحيوانات ، ودواوين الدولة على كثرتها وانواعها . فهذه دار الخلافة الشرقية في اواخر الدولة العباسية . ولم تعش فاطمة خاتون في دار الخلافة العباسية عيشاً طويلاً ، فانها توفيت في يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة ٥٤٢ ، وصلى عليها الشريف الاكمل نور الهدى نظام الحضرتين ابو القاسم علي بن الحسين الزينبي الحنفي ، قاضي قضاة الدولة العباسية ، في صحن السلام بقصر التاج وكان في ارض المحكمة الشرعية وما جاورها ، ثم حملت جنازتها من دار الخلافة في زبب وهو نوع من السفن في تلك العصور ، واصعدوا بها الى ترب العباسيين اي مدفنهم في محلة الرصافة ، وكانت محلة الرصافة في جنوبي محلة الامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت ، وان ارض المقبرة الملكية « بكسر اللام » الحالية ، قرب الاعظمية كانت من محلة الرصافة ، وكان حول الرصافة في اواخر الدولة العباسية سور يفصلها عن محلة ابي حنيفة ، وان كانتا متجاورتين ، متاهنتين .

ودفنت فاطمة خاتون هناك ، قرب مدفن الخليفة المستظهر بالله والد زوجها داخل القبة ، وكان ذلك تعظيماً لها لأن الرصافة كانت مقبرة خاصة العباسيين حسب ، ولا يدفن فيها الا العباسيون والعباسيات ، من اسرة الخلفاء ، وقد زال قبرها بزوال قبر المستظهر بالله وغيره من قبور بني العباس ، فان هولاكو الجبار لما حاصر بغداد سنة ٦٥٦ احرق مقابر الخلفاء بالرصافة ونش قبورهم وبرزت منها الرؤوس والعظام ،

وفي ذلك قال شمس الدين محمد بن عبيد الله الكوفي الشاعر
الواعظ وقد رأى ما فعل التتار بالقبور :

ان ترد عبرة فتلك بنو العباس حلت عليهم الآفات

استبيح الحريم إذ قتل الأحياء منهم واحرق الاموات

وقد ذكر ابن بطوطة قبور بني العباس بالرصافة ذكرًا يشك فيه لانه
سرد اسماءهم من المهدي الى المستعصم بالله ، وقال : « وعلى كل قبر منها
اسم صاحبه » وفي اقواله مجازفة وسهو - كما هو ظاهر للمحققين في التاريخ .
ومن الغريب ان هذه السيدة الجليلة النبيلة لم تترك شيئاً من
الآثار ببغداد ولا في غيرها ، وأن بقاءها في عصمة الخليفة المقتفي
لامر الله ثاني سنوات كان كافياً في اتيان عمل من الاعمال الصالحة
الباقية ، وقد ذكرها العالم الخططي كاي تستريج الانكليزي في
كتابه الخططي الموسوم ببغداد في عهد الخلافة العباسية وقال :
« اشتهرت بكونها أميرة ذات عقل وعلم وسلطان وقدرة في
الشؤون السياسية إذ ذاك ، وقد وافتها المنية في دركاه خاتون
سنة ٥٤٣ قبل وفاة زوجها المقتفي لامر الله ، فدفنها في قبور
الخلفاء في الرصافة » . وفي اقواله تزيد وتسمح وتساهل . والظاهر
أنه نقل ما ورد في وفيات الاعيان استطراداً فقد قال مؤلفه :
« ويقال ان فاطمة خاتون كانت تقرأ وتكتب ولها التدبير الصائب ،
وسكنت في الموضع المعروف بدركاه خاتون وتوفيت في عصمة
المقتفي يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٣ ،
ودفنت بالرصافة . رحمة الله عليها » . هذا قول مؤلف الوفيات وبين
القولين فرق مبين وان كان الرجل مشياً ثناءً حسناً .

السيدة زبيدة بنت المقتفي لأمر الله

ذكرت في البحث السابق لهذا ان السلطان مسعوداً السلجوقي ،
زوج أخته فاطمة خاتون بنت السلطان محمد السلجوقي ، بالخليفة
المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، وحمل الخليفة
المذكور على ان يزوجه ابنته السيدة زبيدة ، اظهاراً منه ومن
عمه السلطان سنجر لمصافاتها البيت العباسي ذا الخلافة ، وللتعزية على معالم
الجرمة الكبرى التي اجرمها ، باغتيالها الخليفين العظميين المسترشد
بالله وابنه الراشد بالله . وفي رجب من سنة ٥٣٤ هـ عقد املاك
السلطان مسعود للسيدة زبيدة ، وحضر العقد وزير الخليفة أبو
القاسم علي بن طراد الزينبي العباسي ، ووزير السلطان مسعود ،
وكان صداقها مائة الف دينار ، أي بقدر صداق فاطمة خاتون
السلجوقية ، ونثر في العقد نثار عظيم ، وكنا اشرنا الى ان
هذا الزواج كان كزواج السيدة بنت الخليفة القائم بأمر الله ،
اشتروط فيه على السلطان المذكور ان لا يدخل بها ولا يلامسها
حتى يفرق الموت بينهما ، وقد كانت صغيرة ايام املاكها ، قال
المؤرخ المحدث الكبير عز الدين ابن الاثير في النسخة الاولى من
تاريخه الكامل وهي غير المطبوعة : « واستقر ان يتأخر زفافها
خمس سنين لصغرها » .

قلت : وكيفما كان الأمر فان زواجها كان شكلياً لا حقيقياً ،

وهو ظلم صريح تنفر منه البشرية وترفضه. الانسانية اشد الرفض ،
 وإذا كان الشيء بالشيء يذكر والحديث ذا شجون ، حسن ان
 نذكر جهل من اخترع قصة املاك جعفر بن يحيى البرمكي ،
 بالعباسة أخت الرشيد مع كونه من المستحيلات شرعاً وعرفاً ،
 وشرفاً ، لأنها كانت هاشمية عباسية ، ولم يكن من اكفائها قط ،
 هذا من جهة العقل والرسوم ، واما دليل النقل فهو ان العباسية
 بنت المهدي كانت زوجة محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله
 بن العباس ، وزوجه اياها ابوها المهدي وحملها اليه وهو في البصرة ،
 وكان الخليفة ابو جعفر المنصور قلده اياها مرتين ، الثانية منها
 في سنة ١٥٩ ، وافرده المهدي ثم الرشيد عليها وتوفي سنة ١٧٣ هـ .
 ويظهر أيضاً من كون زواج السيدة زبيدة وزواج السيدة
 بنت القائم بامر الله للتشرف واكتساب الأجر ، بطلان ما ادعاه
 جرجي زيدان في إحدى رواياته من ان طغرل بك ، اراد ان
 يكون له ابن من السيدة العباسية فبياع بالخلافة بعده ، حتى
 لقد جرى هذا الوهم بين الناس جري المسلمات ، ولم يفكروا في
 ان اسياط الخلفاء العباسيين لا يجوز لهم ولاية الخلافة ابداً ، ومن
 الحق ان الروايات التاريخية المكسوة خيالاً ، يجب فيها ان
 تستمد من حقائق التاريخ وترايينه وتحاسينه ، لئلا تفسد على الناس
 تاريخهم وتضل المبتدئين بدراسة السير ، وتوهم المتوسطين لدراستها .
 اجل تزوج السلطان مسعود السلجوقي السيدة زبيدة بنت
 المقتفي لامر الله تزوجاً لفظياً ، ولم يتصل بها حتى توفي سنة ٥٤٧ هـ ،
 وكان سواءً عليها حياته وموته ، بل كان ذلك العقد وصمة من

وصحات الزمان ومصيبة عظيمة من مصائبه ، لما كان عليه هذا
السلطان من الجور والجبروت والظلم والعسف ، والاسراع الى
سفك الدماء حتى دماء الخلفاء ، وسوء الولاية والتدبير ، وقبح
السيرة والسريرة ، وغبرت السيدة زبيدة بعده اثنتين واربعين سنة ،
وتوفيت ببغداد سنة ٥٨٩ هـ . ولم نجد فيما تحت ايدينا من التواريخ
اين دفنت ، ولو كنا ممن يفرطون في علم الخطط الذي هو فن
جليل مستقل قلنا ان القبر المشهور المعروف عند الشيخ معروف
الكرخي هو قبرها ، فان الست زبيدة واسمها « امة العزيز » زوجة
هرون الرشيد دفنت في مقابر قريش وهي الكاظمية الحالية كما
ذكرنا في الكتاب ، فنحن لا نقول ذلك ولن نقوله حتى نجد في
التاريخ نصاً قاطعاً لكل شبهة ، ولكننا نرى ذلك مستحيل الوقوع
لان زبيدة بنت المقتفي لامر الله كانت توجب رسوم الدولة العباسية
في عصرها ، ان تدفن في مقابر الخلفاء العباسيين في محلة الرصافة ،
وهي اليوم الارض التي بنيت فيها المقبرة الملكية في جنوبي
الاعظمية ، ثم اننا لم نجد لهذه السيدة اخباراً تذكر سوى ما
اثناه لمن القوا اليها اسماعهم ، بعد ما اثناه من بطون الكتب ،
ومن الغريب ان جماعة من المؤرخين ذكروها باسم السيدة بنت
المقتفي ولم يصرحوا باسمها ، منهم المؤرخ الكبير المحدث عز الدين
ابن الاثير ، والامام العلامة جمال الدين ابو الفرج بن الجوزي .

وكان لهذه السيدة مولى من الموالي الاتراك اسمه « ابو سعيد
ارسلان ابن عبدالله » الرومي ، ويعرف بالسيدتي نسبة الى السيدة
المذكورة ، وكان رجلاً صالحاً اقبل على سماع الحديث النبوي

ولقنه عن الشيوخ ببغداد ، فمن روى هو عنه الحديث الشيخ
 ابو المعالي احمد بن عبد الغني بن خليفة الباجسراي ، من قرية باجسر
 المعروفة بأبي جصرة اليوم فوق بعقوبا ، وعُمر حتى بلغ نيفاً
 وتسعين سنة من العمر ، وروى الحديث النبوي ، قال جمال الدين
 ابن الدبيثي المؤرخ المحدث المقرئ : « سمعنا منه الحديث » ، وقال ايضاً :
 قرأت على ارسلان بن عبدالله السيدي [قلت له] : اخبركم ابو المعالي
 احمد بن عبد الغني بن محمد الثاني [ورفع الحديث الى عبدالله بن مسعود
 قال] قال رسول الله - صلوات الله عليه - « سباب المسلم فسوق
 وقتاله كفر » ، وهذا الحديث الكريم من اجل الاحاديث في تربية
 ما يسميه المعاصرون بالمجتمع . ولو لم يكن لهذه السيدة العظيمة
 من المآثر الا هذا الولاء الذي كسبته الشيخ ارسلان ، حتى صار
 محدثاً لوجب ذكرها واحسان الحديث في سيرتها ، فكيف وهي
 بنت خليفة وزوجة سلطان ؟ وتوفي الشيخ ابو سعيد ارسلان السيدي
 ببغداد ، في اليوم الثالث عشر من شهر ذي الحجة من سنة ٦٣٦ هـ .
 ودفن في المقبرة الوردية في الجانب الشرقي من بغداد ، وهي
 المعروفة بمقبرة الشيخ عمر السهروردي .

أما المؤرخون الذين ذكروا السيدة زبيدة بنت المقتفي لامر
 الله وباسمها الصريح ، وقرأنا ذلك في توارخهم ، فهم علي بن ابي
 الفرج البصري مؤلف الحماسة البصرية ، فقد ذكرها في تاريخه الموسوم
 « بال مناقب العباسية والمفاخر المستنصرية » وقد ألفه سنة ٦٥٩ هـ .
 والمؤرخ شمس الدين الذهبي في تاريخ الاسلام ، وصلاح الدين
 الصفدي في الوافي بالوفيات ، وجمال الدين بن تغري بردي

مستطرداً ، الى ذكرها في ترجمة احدى السيدات العظيمات اللاتي
كان صداقهن « مائة الف دينار » ، وذلك في كتابه « المنهل
الصافي والمستوفي بعد الوافي » ، وكل هذه الكتب خطية . قال ابن
تفري بردي في اصداق عظيمة ، وكان صداقها على زوجها مائة الف
دينار كصداق خديجة السلجوقية على الخليفة القائم بأمر الله ،
وكذلك المكتفي زوج ابنته زبيدة بالسلطان مسعود بن محمد بن
ملكشاه السلجوقي ، على صداق مائة الف دينار . وقد قال
« المكتفي » بالكاف ولم يقل المكتفي بالقاف ، وقوله غلط صريح ،
فانها بنت المكتفي لأمر الله المتوفى سنة ٥٥٥ لا بنت المكتفي
المتوفى ٢٩٥ ، وبين وفاتها مائتان وستون سنة ، وهذا الغلط
يدل على ان المؤرخ لا يكون بارعاً إلا اذا كان قوي الحافظة
متين الذاكرة . وإلا كان كثير الاوهام والسهو .

الست بنفشة

(سيرتها وآثارها، ومدرستها بالجانب الشرقي، وقبرها تحت قبّة الست زبيدة)
ان هذه السيدة الكبيرة كانت في اول امرها بملوكة رومية
من الجوارى اللاتي افضت النخاسة بهن الى دار الخلافة العباسية ،
فمنهن من صرن بعد اعتاقهن من رقهن سيدات ، ومنهن من
اصبحن امهات للخلفاء والامراء ، ولما كانت المرأة قليلة الحظ
من التاريخ الاسلامي لم يكن غريبا قط أن تجهل من اول تاريخ
الست بنفشة جانبا ، ولولا أنها أثرت آثاراً حسنة واثت افعالا
مستحسنة ما احتوى على ذكرها تاريخ ولا اشار الى اسمها . لقد
كان سيدها الخليفة المستضيء بأمر الله تقيا ورعا مستقيما السيرة
عادلا الا انه كان مستضعفا عاجزا عن الاضطلاع بامور الخلافة
مستكينا ، فكثرت الاضطرابات في عهده ، وتنافس الامراء
والوزراء في الاخذ بزمام السلطان . واستدعى ذلك احياء العصبية
المذهبية ، وطمع الدولة السلجوقية في تجديد حكمها في العراق بعد
انقراضه ، وتنقص ملوك الاطراف وامرائها لاطراف العراق ثم انتهى
ذلك كله بموت هذا الامام واستخلاف ابنه الخليفة المهام الناصر
لدين الله بالتاريخ الذي ذكرناه قبل هذا - نعي سنة وفاته - .
وكان من المتوقع ان تكون الست بنفشة كسيدها تقية زاهدة
عابدة تصرف همها لأعمال البر والاحسان والآثار الصالحة ،

والافعال الخالدة ، وكان للمستضيء بأمر الله جارية اخرى اسمها
زمرد خاتون . وكانت المنافسة بينهما طبيعية وكل منهما كانت تلقب
بالجهة ، وهي كناية عن السيدة العظيمة من سيدات الخلفاء والسلاطين .
الا ان زمرد خاتون ولدت لسيدها من الاولاد فصارت حرة بعد
اعتاقها او ولادتها ، وتأثّل لها فضل عظيم بذلك . وكانت بنفسه
حنبلية المذهب وزمرد شافعية المذهب ، وكانت على شافعيتهما
تعطف على الحنابلة وتحسن اليهم وترعى مصالحهم طول خلافة زوجها
المستضيء بأمر الله والمدة التي عاشتها من خلافة ابنها الخليفة الناصر
لدين الله ، وهذا امر يدل على التسامح المذهبي النبيل .

ومن اجل آثار الجهة بنفسه مدرسة كانت اتخذتها للحنابلة سنة
٥٧٠ هـ ، في باب الشعير بباب الأزج^١ من بغداد . قال جمال الدين
ابو الفرج ابن الجوزي في حوادث هذه السنة « وفي يوم الخميس
خامس عشرين شعبان سلمت اليّ المدرسة التي كانت داراً لنظام الدين
ابن ابي نصر (المظفر بن علي بن محمد) بن جبير ، وكانت قد وصلت
ملكيتها ، الى الجهة المسماة بنفسه فجعلتها مدرسة وسلمتها الى
ابي جعفر بن الصباغ ، فبقي المفتاح معه اياماً ثم استعادت منه
المفتاح وسلمته اليّ من غير طلب كان مني ، وكتب في كتاب
الوقف « انها وقف على اصحاب احمد (بن حنبل رضي الله عنه)
وتقدم اليّ يوم الخميس المذكور بذكر الدرس في المدرسة ، فحضر

(١) باب الأزج اسم لمحلة كبيرة كانت تسمى بها المواضع التي تشمل محلة السيد
سلطان علي ورأس الساقية حتى تربة الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاني المعروف
بالجيلاني ايضاً .

قاضي القضاة وحاجب الباب وفقهاء بغداد وخلعت علي خلعاً نفيسة ،
وخرج الدعاة بين يدي والخدم ، ووقف اهل بغداد من باب النوبي
الى باب المدرسة كما يكون في العيد واكثر . وكان علي باب المدرسة
الوقف ، والزحام على الباب ، فلما جلست لالقاء الدرس عرض كتاب
الوقف على قاضي القضاة وهو حاضر مع الجماعة فقرئ عليهم وحكم
به وانفذه ، وذكرت بعد ذلك الدرس فالقيت يومئذ دروساً
كثيرة من الاصول والفروع وكان يوماً مشهوداً لم ير مثله .

وكان ابن الجوزي قد اشار الى هذه المدرسة في حوادث سنة
٥٤٢ هـ قال : « وعزل (نظام الدين المظفر بن علي بن محمد)
ابو نصر بن جبير في ربيع الاول عن الوزارة وسكن بالدار التي
بناها بشاطيء دجلة بباب الازج وهي التي آل امرها الى ان
صارت ملكاً لجهة المستضيء بامر الله (بنفسه) فوقفتها مدرسة
لاصحاب احمد بن حنبل ، وسلمتها الي ، فدرست فيها سنة سبعين
 وخمسة . » وأشار الى هذين الجوين ابو المظفر يوسف المعروف
بسبط ابن الجوزي ، وقال زيادة على ما ذكره جده « وهي اليوم
(سنة ٦٥٤ هـ) تعرف بمدرسة ابن الجوزي » وان بنفسه وقفت
على المدرسة قرية ، وان الذين اجتمعوا في الطرق يوم افتتاح
المدرسة ينيف عددهم على خمسين الف انسان . وأشار الى وقف القرية
على المدرسة تاج الدين بن الساعي وسيأتي النقل عنه .

وهذه المدرسة هي التي رأى الاديب الرحالة ابن جبير سنة
٥٨٠ هـ ابن الجوزي فيها ، وسمع دروسه ، وظن انها داره مع ان
كثيراً من مدرسي تلك العصور كانوا يسكنون في المدارس التي

يُدرسوت فيها . قال ابن جبير : « ثم شأهدنا صبيحة يوم السبت
(١٣ صفر سنة ٥٨٠) ... مجلس الشيخ الفقيه الامام الاوحد
جمال الدين ابي الفضائل (عبد الرحمن) بن علي الجوزي بازاء
داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور
الخليفة ومقرية من باب البصلية^١ آخر ابواب الجانب الشرقي وهو
يجلس به كل يوم سبت ، فشأهدنا مجلس رجلاً ليس من عمره ولا
زيد وفي جوف الفراكل الصيد ، آية الزمان وقرة عين الايمان رئيس
الجنبلية ... » ثم قال مكرراً وصف هذا المجلس العظيم « وحضرنا
له مجلساً ثالثاً يوم السبت الثالث عشر لفر صفر بالموضع المذكور
بازاء داره على الشط الشرقي ، فأخذت معجزاته البيانية مأخذها
فشأهدنا من امره عجباً » .

وفي الجانب الشرقي اليوم قرب دجلة على مقربة من قصر
النقيب ، تربة رجل كتب على بابها انه الشيخ ابو الفرج عبدالرحمن
بن الجوزي المذكور ، وهذا اختلاق مسند الى جبر بن جبير في
ظنه ان مدرسة الست بنفسه كانت داراً اصلية وملكاً لابن
الجوزي ، والى انه دُفن في ذلك الموضع ، وهذا وهم تاريخي مبين ،
لان مترجي ابن الجوزي اجمعوا على انه دفن بباب حرب في
الجانب الغربي من بغداد .

وسميت هذه المدرسة ايضاً الشاطئية لكونها واقعة على شاطئ
دجلة ، وهذا تسامح في التسمية لان عدة مدارس كانت على

(١) هو الباب الشرقي ، وكان باقياً الى عهد قريب فهدمته بلدية العاصمة
وأزال آثر من آثار السلف .

الشاطيء في ذلك العصر ؟ منها مدرسة ثقة الدولة الانباري ومدرسة
ابي النجيب السهروردي والمدرسة الموفقية ومدرسة عز الدين سعادة
بن عبدالله المستظري . وقد جاءت تسمية « الشاطئية » في سماع
نسخة من كتاب « الانساب المتفقة في الخط المتأصلة في النقط
والضبط » لابي الفضل محمد بن طاهر المقدسي ، بخط ابن الجوزي
نفسه ، وهذا بعض نصه « كتبه عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي ،
حامداً لله تعالى ومصلياً على رسوله محمد وآله ، وقع الفراغ منه
في ليلة الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة من سنة ٥٧٥ بالمدرسة
الشاطئية من باب الازج والمحدثه » .

وفي هذه المدرسة امتحن ابن الجوزي - اعني اصابته بحنة على
حسب ما ذكر سبطه - وذلك في سنة ٥٩٠ ، لانه كان من
اعوان الوزير عبيد الله بن يونس الحنبلي ، وكان هذا الوزير عدواً
لابناء الشيخ الزاهد عبدالقادر الجيلي الحنبلي ، فلما قبض على الوزير
المذكور سلط ركن الدين عبدالسلام بن عبدالوهاب بن عبدالقادر
الجيلي على ابي الفرج بن الجوزي في السنة المذكورة ، وتولى هو
اعتقاله ، قال سبطه « وكان جدي يسكن بباب الازج بدار بنفسها
وكان الزمان صيفاً وجدي جالس في السرداب يكتب وانا صبي
صغير فما احسنا الا بعبدالسلام واذا به قد هجم على جدي في
السرداب واسمعه غليظ الكلام ونخم على كتبه وداره وسبي عياله
وجرى عليهم ما لم يجر على اقل الناس ... »

وبعد هذه الحادثة اسند التدريس في مدرسة بنفسها الى ركن
الدين عبدالسلام المذكور حفيد الشيخ العابد عبدالقادر الجيلي ،

فدرس فيها الفقه الحنبلية ، ودرّس بعده في هذه المدرسة الشيخ
العلامة عماد الدين ابوصالح نصر بن تاج الدين عبد الرزاق بن عبد
القادر الجيلي .

هذه خلاصة اخبار المدرسة البنفسية ، ويلتبس اسمها باسماء عدة مدارس
كانت ببغداد ، هي المدرسة التنشمية والمدرسة الثقلية والمدرسة المغيبية ، والظاهر
لنا ان اخبارها انقطعت دون كثير من مدارس بغداد في تلك العصور ،
فآخر مدرس - على حسب ما علمنا نحن من تاريخها - هو عماد الدين
ابو صالح نصر بن عبد الرزاق ، حفيد الشيخ الفقيه عبد القادر الجيلي
المذكور قبل هذا ، وقد توفي سنة ٦٣٣ هـ كما هو المذكور
في المراجع التي اشرنا اليها من قبل . واسوأ الاحوال اثرآ في
مثل تلك المدرسة هو احتمال اجتفاف دجلة لممارتها لما انها على الشط
والاستيلاء على وقفها ، فان زوال الوقف زوال المدرسة .

وامرت الست بنفشة ايضاً في سنة ٥٧٠ بعد عمل جسر
لبغداد ، اذ لم يكن لها الا جسر واحد ، فمد هذا الجسر الجديد
من الدوايب بباب الغربية أي باب سوق المستنصر الحالي ، الى
رقة ابن دحروج بالجانب الغربي . ومن الذين كتبوا سيرة الخليفة
المستضيء بامر الله من اضاف نصب هذا الجسر اليه ، لأنه كان
سيدها وزوجها ، وهذا وهم وظلم فان الانفاق على صنع جسر
لا يسخر به الا النفوس الكريمة ولا يقوم به الا نفقات عظيمة ،
فيجب ان يكون الفضل لنفسه والذكر الحسن له ولان ساعده
على ذلك فالفضل لنفسه .

وكان لهذه السيدة الاثر الحسن في جعل الخلافة للامام ابي العباس

احمد الناصر لدين الله ، وتنحية اخيه ابي منصور هاشم عنها . وذلك لان المستضيء بامر الله كان هو وجماعة من ارباب دولته يخشون الامير ابا العباس المذكور فاعتقله خوفاً منه . ولما احسن المستضيء بدنو الاجل اراد ان يعهد الى الامير ابي منصور هاشم ، فقالت له الست بنفسه : « الله الله ان تعدل عن ابي العباس » فكانت هذه هي الكلمة الراجحة الناجحة ، فرعى الناصر لدين الله ذلك لها واحسن اليها أعظم الاحسان واتزها في الدار التي كانت بها والدته زمرد خاتون وسياتي في الاخبار ان بنفسه كانت تسكن في درب الدواب .

وقد وهم الاديب الكبير العلامة صلاح الدين الصفدي في عده الست بنفسه ومجد الدين هبة الله بن صاحب من حزب ابي منصور هاشم ، فان الامر كان على ضد ذلك - بيناه - . وهم ايضاً في اعتداد ابنة الناصر لدين الله ابنة لابنه الامام الظاهر بامر الله ووزرائه وزراء له وفتوحه فتوحاً له .

اما الدار الضخمة العظيمة التي انزل الناصر لدين الله الست بنفسه فيها ، وكانت قبل ذلك لأمه زمرد خاتون ، فهي دار سوق التمر ، وكانت من الغرب متصلة بباب الغربية ، اي بباب سوق المستنصر الحالي ، ومن الشرق متصلة بالبدرية وكانت عظمة مشرفة على مشرعة الايوبيين وهي مشرعة المصبغة الحالية ، وكان لها باب عال ودركاه اي وجه فخم ، وهي الدار التي جعلها الناصر لدين الله بعد ذلك مسكناً للامير جمال الدين قشتمر الناصري ، تشریفاً له واختصاصاً . وعلى ما ذكرنا يكون موضعها في موضع الخان

المجاور لدائرة البريد في شارع السموءل ، من بغداد في هذا الزمان .
وتترجم هذه السيدة الجليلة مستفيضة في عدة تواريخ ، فقد
ذكرها الاديب المؤرخ المحدث عز الدين بن الاثير ، قال : « وفيها
توفيت بنفسها جارية الخليفة المستضيء بأمر الله وكان كثير الميل
اليها والمحبة لها وكانت كثيرة المعروف والاحسان والصدقة » .
وقد بنت رباطاً « تكمية » للنساء المتصوفات « الدرويشات » .

وقال السيوطي ، ناقلاً من تاريخ محب الدين محمد بن محمود
النجار المؤرخ ، « وبفسا الرومية مولاة المستضيء بالله » ، كانت
صالحة كثيرة الخيرات والمبرات . قال ابن النجار : انها كانت
في عيد الفطر كل سنة تخرج زكاة الفطر صاعاً من تمر وتقول :
هذا ما فرضه علي الشرع وانا لا اقنع من مثلي « كذا » فتخرج
صاعاً من الذهب العين دنانير متفرقة على الفقراء » . وذكرها ابن
كثير في البداية والنهاية « ج ١٣ ص ٣٤ » بالثناء الحسن ، ولم
يكن احسانها مقصوراً على هذه الانواع المذكورة بل تعدتها الى
بجالة العلماء وتطبيب نفوس الفضلاء بمثل ما ذكره الامام ابن
الجوزي من اخبار خطبة ابنته رابعة وزفافها ، قال في حوادث
سنة ٥٧٢ ما نصه « وزفت ابنتي رابعة ليلة الاربعاء ثاني
عشر المحرم الى زوجها وكان زفافها في دار الجهة المعظمة في درب
الدواب وحضرت الجهة وذلك بعد ان جهزتها بمال كثير » وقال
السيوطي « وهذه رابعة هي والدتي تزوجها ابن رشيد الطبري وهو اول
ازواجها ولم يطل عمره معها ثم تزوجها جدي بوالدي بعد موت
ابن رشيد ، وقد سمعت الحديث ، وزفت الى ابن رشيد في

المحرم سنة ٥٧٢ في دار الجهة بنفسه جبة الخليفة وجهازها بمال عظيم ما قصد جدي بهذا الكلام إلا الاعلام بمكانته وعلو منزلته عند الخليفة ، وان احداً من ابناء جنسه لم يصل الى مرتبته غير مرة في مقالاتنا .

قلت : ودرب الدواب المذكور غير مرة في مقالاتنا كان في حريم دار الخلافة ، اي في موضع محلات النصارى اليوم . وذكرها تاج الدين بن الساعي قال : « كانت لها بر معروف وصدقة جارية وقفت مدرسة بباب الازج على دجلة على فقهاء الحنابلة ووقفت عليها قرية » وذكر ما قدمنا ذكره ثم قال : « ولها بطريق مكة آثار جميلة » . وذكرها ابو المظفر سبط ابن الجوزي قال : « كانت كريمة صالحة كثيرة الصدقات والصلات عمرت الربط والمساجد والجسر ببغداد ، وتصدقت باموال كثيرة على العلماء والفقراء والمساكين » . واعاد قوله ابو شامة في تاريخه ، وقال المؤرخ الكبير شمس الدين الذهبي : « كانت احب سراري المستضيء بأمر الله اليه ... وكانت كثيرة الرغبة في افعال البر » . وكانت الى ما نقلنا من برها وتقواها ذات دعاية وروح خفيفة ، قال سبط بن الجوزي في ترجمة ابي الفتح صدقة بن الحسين المعروف بالناسخ وبابن الحداد الفقيه المؤرخ الحنبلي : « وكانت صدقة يحسد جدي وكانت بنفسه جارية الخليفة تعلم ذلك ، فكانت تغبطه : بعثت اليه يوماً خادماً ومعه طبق مغطى بمنديل ديبقي فوضعه بين يديه فظن ان فيه حلاوة ، فكشفه فاذا بقدر من زجاج فيه ماء ، فقال الخادم : الجهة تقول لك هذا من بر

وقعت فيه فأرة فانظر هل هو طاهر ام نجس ؟ فشم الجهة وقال :
الخلع والحلاوات والمال لابن الجوزي ، وصدقة يسأل عن الماء
للنجس . فابلغها الخادم « ذلك » فضحكت وبعثت له شيئاً .

توفيت الست بنفسه (رح) في التاسع والعشرين او التاسع
عشر من شهر ربيع الاول سنة ٥٩٨ . ذكر ذلك ابن الساعي
والذهبي والسيوطي وابن النجار . قال سبط ابن الجوزي : « ولما
توفيت تولت امرها والدة الخليفة (الناصر لدين الله الجهة زمرد
خاتون) وجهازها احسن جهاز ودفنتها في تربتها المجاورة لمعروف
الكرخي وذلك في ربيع الاول » وقال ابن الساعي : « وصلي
عليها بالجانب الغربي عند التربة المجاورة لقبر معروف الكرخي
- رح - ودفنت بها » .

والتربة التي ذكرها المؤرخان هذان هي المعروفة اليوم بقبة
الست زبيدة في الجانب الغربي عند قبر الشيخ التقي الزاهد معروف
الكرخي ، فهي تربة الجهة زمرد خاتون والدة الامام ابي العباس
احمد الناصر لدين الله الخليفة العباسي ، وقد دلت الاخبار على
انها اموت ببنائها قبل سنة ٥٩٨ التي دفنت فيها الست بنفسه
وبنت عندها مدرسة ورباطاً لها تاريخ وبحث مستقل .

« كناية المدرسة البنفسية »

قال ابو الفرج بن الجوزي في حوادث سنة ٥٧١ هـ : « وفي
رمضان كتب على حائط المدرسة التي وقفتها الجهة (بنفسه)
وسميتها الي ، بخط القطاع في الآجر :
وقفت هذه المدرسة الميمونة الجهة المعظمة الشريفة الرحيمة

بدار الرواشني في ايام سيدنا ومولانا الامام المستضيء بالله امير
المؤمنين على اصحاب الامام احمد بن حنبل وفوضت التدريس بها
الى ناصر السنة ابي الفتح ابن الجوزي .
هذا ما وقع اليينا من سيرة هذه السيدة النبيلة العظيمة الجليلة
وتاريخ آثارها وانها لحرية ان تكون - كما قلنا - قدوة السيدات
الفاضلات .

السيدة زمرد خاتون

زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله

السيدة زمرد خاتون، كانت من سيدات دار الخلافة العباسية ببغداد ، وهي ام خليفة وزوجة خليفة من خلفائهم ، وتعرف اليوم بقبة قبرها ، بقبة الست زبيدة عند مدفن الشيخ الزاهد العابد معروف الكرخي ، في الجانب الغربي من بغداد ، وقد رمت القبة غير مرة كما هو ظاهر فيها . وآخر من رممها الوالي كاظم باشا نسيب السلطان عبد الحميد العثماني الثاني .

ان هذه السيدة العظيمة الكريمة ، قد جهت اخبارها وآثارها ، كما أضل الناس اسمها ، فذسبوا قبرها الى غيرها من شهيرات بنات العباس . كانت هذه السيدة في اول امرها فتاة تركية بلوكة ، جلبها الجلابون من بلاد الترك الشرقية فباعها النخاسون ببغداد ، وهيأت لها أسباب السعادة أن تكون مبيعة في دار الخلافة العباسية ، وجارية للامير أبي محمد الحسن بن يوسف العباسي ، الذي تولى الخلافة ولقب بالمستضيء بأمر الله سنة ٥٦٦ هـ ، وهي سنة وفاة أبيه المستنجد بالله . وكان له جارية اخرى اسمها بنقشة ولها شأن عظيم في التاريخ ، وقد اعنقهما الخليفة المستضيء بأمر الله ، فصارتا زوجتين له اسداهما ضرة اخرى . ولقبت زمرد بالجهة المعظمة ، فلم يحدث بينهما ما يحدث بين الضرات ، وذلك لسمو أنفسهما

وصحة ديانتها . وفي سنة ٥٥٢ ولدت زمرد خاتون للمستضيء ابناً ،
 فسماه بأحمد وكناه بأبي العباس . وهو الذي استخلف ولقب
 بالناصر لدين الله . وكان الخليفة المستضيء بأمر الله تقياً زاهداً ،
 ناسكاً عابداً ، نزعته منه أمور الخلافة وشؤون الدنيا فأقبل على
 الآخرة ، وحذت حذوه زوجته زمرد خاتون وبنفسه ، واشتهرتا
 بالصلاح والخير والنسك والعبادة . وكانت زمرد خاتون شافعية
 المذهب وبنفسه حنبلية ، فبنت الأولى - أعني زمرد - مدرسة
 للشافعية بجوار تربة الشيخ معروف الكرخي ، ورباطاً أي تكية
 ومدفناً لنفسها ، وهو المدفن المعروف بقبر الست زبيدة - كما
 ذكرناه في أول الحديث - ووقفت على الكل اوقافاً سنبة دارة .
 وفتحت هذه المدرسة للشافعية ، يوم الخميس التاسع والعشرين من
 شوال سنة ٥٨٩ ، وأمرت بأن يكون مدرساً فيها فخر الدين
 أبو عبد الله محمد بن أبي علي بن أبي نصر النوقاني الشافعي المشهور
 عند المشتغلين بتاريخ العراق . وأمرت أيضاً بأن تحلج عليه خلعة
 جميلة وعمامة وطريحة ، والطريحة هي طيلسان المدرسين ، واجرت
 له جراية حسنة ومشاهرة كثيرة ، وسكن طلابه في المدرسة وسكن
 هو في دار متصلة بها ، بنيت لأجله ، وكان ذلك في خلافة ابنها
 الامام الناصر لدين الله علي ما هو واضح من التاريخ الذي ذكرناه
 للافتتاح . وبنت أيضاً مسجداً في موضع الحظائر على دجلة ،
 ويعرف اليوم بمسجد الخفافين جنوبي المدرسة المستنصرية . ومعلوم
 انه بُني قبل هذه المدرسة ، ولم يبق اليوم من عمارته الأولى الا
 المنارة وهي أقدم المنارات ببغداد ، لأنها بنيت قبل انتهاء القرن

السادس للهجرة ، وعلى طرزها بنيت كل منائر بغداد ، من القرون
الخيالية بعد انشائها حتى اليوم . وجددت بناء رباط كان قرب مشهد عبيد
الله العلوي المعروف اليوم بابي رابعة شرقي الاعظمية . ولقد أجمع المؤرخون
على اختلاف عصورهم على أنها كانت من أرغب النساء في فعل الخير ،
واكثرهن له فعلاً . وكانت تهر العلماء وتفضل على الفقراء والمساكين ،
وتتفقد الايتام وذوي الحاجات والفاقات ، وتتصدق بالصدقات
الواهرة ، وتتفضل على أهل العلم والدين والصلاح والمنقطعين .
وكانت تعطف على الحنابلة أيضاً فانها زوجت الشيخ عبد الغني
ابن نقطة الحنبلي الزاهد المشهور ، بجارية من جوارها ونقلت معها
جهازاً يساوي عشرة آلاف دينار . قال ابو المظفر يوسف المعروف
بسبط بن الجوزي في تاريخه « كانت صاحبة كثيرة المعروف
والصدقات دأمة البر والصلات ، متفقدة لأرباب البيوت ، حجت
وأنفقت ثلاثمائة الف دينار - على ما بلغني - وكان معها نحو
من ألفي جمل ، وتصدقت على أهل الحرمين مكة والمدينة ،
وأصلحت البرك والمصانع أي مخازن المياه ، وعمرت التربة عند
قبر معروف الكرخي والمدرسة الى جانبها ، وأوقفت عليها
الأوقاف . توفيت في جمادى الاولى من سنة ٥٩٩ هـ ، وحزن ابنها
الحليفة الناصر لدين الله عليها حزناً لم يحزنه ولد على والدته ،
وفعل في حقها ما لم يفعله أحد ، وصلى هو عليها في صحن
السلام ومشى بين يدي تابوتها إلى دجلة من ناحية قصر الناج ،
ثم حملت في الشبارة نهراً ، والوزير نصير الدين ناصر
بن مهدي العلوي قائم مشدود الوسط ، وأرباب الدولة قائمون في

السفن ، وضعدوا بتابوتها من دجلة الى القرية ، وأمر الخليفة الناصر أن يمشي الناس من دجلة الى تربتها المجاورة لمعروف الصرخي والمسافة بعيدة ، وكان الوزير نصير الدين بن مهدي حزيناً فكاد يهلك ، وقعد في الطريق نحواً من ثلاثين مرة ، وعمل العزاء لها شهراً كاملاً ، وأنشدت المراثي ، وختمت الختمات ، وتكلمت أنا في العزاء ، وكان قد وقع الثلج يوم وفاتها وزاد الماء في دجلة زيادة عظيمة ، وتكدر نهر عيسى والتربة قريبة منه ... وفرّق الخليفة بعد الشهر أموالاً كثيرة في الزوايا والربط والمدارس ، وخلع على الاعيان ومن لم يخلع عليه أعطاه مالا ، وأمر بان يفرّق جميع ما خلقته والدته زمرد خاتون من ذهب وفضة وخلي وجواهر وثياب ، في جواربها وماليكها ، فقسم بينهم ، وحمل ما كان في خزانتها من الاشربة والمعاجين والعقاقير الى المارستان العضدي ، وكان بساوي ألوف دنانير ، وحزن عليها أهل بغداد حزناً عظيماً لأنها كانت محسنة الى الناس . (انتهى كلام سبط بن الجوزي)

أما الشبارة التي حملت فيها جنازة زمرد خاتون فهي نوع من السفن متوسطة الكبر كالبحث وأما محلة القرية التي أصعدت الجنازة من مشرعتها فهي باب السيف وما حولها نحو الغرب ، وقد نقل قول سبط ابن الجوزي ، أبو شامة المؤرخ في تاريخه « ذيل الروضتين » ، والامام شمس الدين الذهبي في تاريخ الاسلام ، وزاد نقلاً عن ابن البزوري المؤرخ أن أرباب الدولة ظلوا يترددون الى مدفن زمرد خاتون شهراً كاملاً ، لابسين ثياباً بيضاً وهي ثياب العزاء . ولم يضرب طول الشهر في الدولة طبل ولا شهر

سيف ، ودام لبس ثياب الغزاء سنة كاملة ، قال الامام الذهبي :
وهذا أمر لم يعمل مثله لأحد ولا خليفة .. وقلت أنا :
وهكذا بلغ الناصر لدين الله المثل الأعلى بين الخلفاء في
كل الامور وهكذا فلتكن محبة الولد لوالدته . وبما أثر
من اخبار هذه الجهة المعظمة ، انها كانت تحب سماع
وعظ الشيخ جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي ، شيخ الحنابلة في
زمانه ، قال ابن جبير الرحالة الاديب في وصف مجلس وعظ
الشيخ المذكور : « ثم شاهدنا مجلساً ثانياً له ... بباب بدر في
ساحة قصور الخليفة ، ومناظره مشرفة عليه ، وهذا الموضع المذكور
هو من حرم الخليفة ، وخصص ابن الجوزي بالوصول اليه والتكلم
فيه ، لسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من
الحرم ... » ، قال : « فصعد المنبر وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعاً
لحرمة المكان ... ثم صعد بخطبته الزهراء ... ثم اخذ في الشراء
على الخليفة والدعاء له ولوالدته ، وكفى عنها بالستر الاشرف والجناب
الأرأف ، ثم سلك سبيله في الوعظ ... » وموضع باب بدر كان
وراء جامع مرجان الحالي .

وكانت زمرد خاتون تقيم في دار عظيمة فضمة تعرف بدار
سوق التمر ، وسوق التمر هو سوق السمور الحالي ، وبحل هذه
الدار اليوم خان قريب من باب سوق المستنصر ، ثم نزلت عن
هذا القصر لضررتها السيدة بنفشة ، لانها اعانت الناصر لدين الله
ابنها على تولي الخلافة ، وقد كادت تولى اخاه ابا منصور هاشماً .
وماتت السيدة بنفشة قبلها بعدة اشهر ، فتولت هي امرها وجهازها

الى آخرتها احسن جهاز ، ودفنتها في تربتها تحت القبة التي ذكرنا
انها تعرف بقبة الست زبيدة ، ثم دفنت هي بعدها ، وهذا نوع
من الايثار عظيم عند الصالحين والصالحات . اما غيرهم وغيرهن
فيعجبون ويعجب كيف تبني السيدة قبرها في حياتها ؟ فان النفوس
لا تطوع بذلك .

وبعد اثنتي عشرة سنة من وفاة زمرد خاتون ، توفي خفيدها
ابو الحسن علي بن الخليفة الناصر لدين الله ، الملقب بالملك المعظم ولي عهد
الخلافة العباسية ونائب ابيه في الفتوة ، فدفن مع جدته زمرد
خاتون . قال الشيخ العلامة عز الدين بن الاثير في تاريخه : « ولما
توفي الملك المعظم ابو الحسن علي بن الناصر لدين الله ، اخرج
نهاراً ومشى جميع الناس بين يدي تابوته ، الى تربة جدته عند قبر
معروف الكرخي فدفن عندها ، ولما ادخل التابوت أغلقت الابواب
وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة ، فقبل ان ذلك صوت
الخليفة ، واما العامة ببغداد فانهم وجدوا عليه وجداً شديداً ،
ودامت المناحات عليه في اقطار بغداد ليلاً ونهاراً ولم يبق ببغداد
محلة الا وفيها النوح ولم تبق امرأة الا واظهرت الحزن ، وما
سمع ببغداد مثل ذلك في قديم الزمان وحديثه » ، (هذا كلام
ابن الاثير) وهكذا فليكن حب الشعب للملوك العادلين والامراء
المقسطين .

واخر من نعلها دفنت تحت هذه القبة ، عائشة خانم بنت مصطفى
باشا وكانت زوجة حسن باشا والي بغداد ، وذلك سنة ١١٣١ هـ
أي سنة ١٧١٨ م ، ذكر ذلك الرحالة الاوروي نيهير ونقل

ما كتب لعائشة خانم في باطن القبة ١ ، ونقله من رحلة نبيه
غيره وأشار اليه العلامة لسترنج في آخر كتابه المؤلف في خطط
بغداد الموسوم بكتاب « بغداد في عهد الخلافة العباسية » ، ونفى
كل النفي ان تكون القبة لقبر زبيدة زوجة هارون الرشيد ،
ناقلا من تاريخ عز الدين بن الاثير ان زبيدة مدفونة في مقابر
قريش اي الكاظمية الحالية ، والحق معه ، إلا انه لم يعرف ان
هذه القبة قبة زمرد خاتون ، بل ذهبت به الظنون الى شيء آخر
هو انها قبة عون ومعين التي ذكرها ابن جبير ، وقد فند الأستاذ
الكبير ماسنيون قول لسترنج تفنيداً قوياً .

وقال الأستاذ العلامة السيد محمود شكري الألوسي رحمه الله ،
في كتابه « مساجد بغداد وآثارها » : « مسجد زبيدة ام جعفر ،
هذا المسجد كان قرب مسجد الشيخ معروف الكرخي ، وقد
اندرس سنة ١١٩٥ ، وكان واسعاً رصين البناء قوي الاركان ،
ولما بنى سليمان باشا الكبير والي بغداد سور الجانب الشرقي ،
استعملت انقاض المسجد في بناء السور ، ولم يبق اليوم سوى
قبر زبيدة من ذلك المسجد ، وعليه قبة مخروطية الشكل من
نوادير الفن العماري ، وهي نحو ميل الشيخ عمر السهروردي ، وكان
تاريخ العمارة داخل المشهد بالحجر الكاشاني ، وقد اقتلعه من اقتلعه » .

(١) « هذا قبر المرحومة المغفورة الصالحة العفيفة الساعية الى الافعال المرضية
والاعمال التي تستجلب المرادة الالهية عائشة خانم بنت المرحوم مصطفى باشا صاحب
السلطان محمد خان عليه الرحمة والغفران وزوجة الدستور المسكرم والوزير الافخم والي
بغداد دار السلام ابي الخيرات حسن باشا ، يسر الله له الخير كما يحب ويرضى وبشاء
توفيت في شهر رمضان سبعة وعشرين ليلة القدر في سنة واحد وثلاثين ومائة والف » .

ثم ذكر الكتابة التي يظن انها كانت في باطن القبة ، ونفى ايضاً
مثل لستونج ان تكون القبة لزبيدة زوجة الرشيد ، قال : « ولعل
التوبة التي في قبر معروف لزبيدة اخرى ، اما زوجة هارون
الرشيد فقبرها في جوار قبر موسى بن جعفر كما يدل عليه ما
ذكره ابن الاثير » هذا بعض كلام السيد محمود شكري .
واوجه ما يقال في سبب هذا الاستبدال ، أن اسم زمرد
حطم حروفه الزمان ، فبقي منه الزاي والذال ، فظن الناس
ان هذين الحرفين هما من اسم « زبيدة » . لا من اسم « زمرد » ،
فزمرد مجهولة التاريخ عند الناس ، ولا يعرف تاريخها الا المختصون
بتاريخ العراق وخططه اختصاصاً تاماً .

السيدة سلجوقه خاتون

يظهر اسم «سلجوقه خاتون» غريباً اول وهلة ، وكان واجباً ان يكون مألوفاً مأنوساً ، إلا ان تاريخ العراق بمن فيه من عظماء وعظيمات ، لا يزال مستبهماً مستعجباً ، وهذه السيدة النبيلة بنت ملك واخت ملوك ، وزوجة امير ثم زوجة خليفة عظيم ، وتوفيت ببغداد ودفنت فيها ، على ما نحن ذاكرون في سياق سيرتهم ، وطريف اخبارها ، وجليل آثارها .

وُلدت هذه السيدة العظيمة سنة ٥٥٤ هـ تقريباً في قونية من البلاد المعروفة يومئذ ببلاد الروم واليوم بالاناضول وتوكية ، في قصر ابيها الملك قليج ارسلان الصغير بن مسعود بن قليج ارسلان الكبير السلجوقي ملك قونية وما جاورها ، ونشئت هناك تنشئة ملوكية اسلامية ، وكانت بارعة الجمال فائقة الخصال ، شريفة النفس ، كريمة الاخلاق ، وكان لها من الاخوة سبعة ، او اكثر منهم ، لا نرى داعياً الى ذكر اسمائهم ولا الى ذكر مالكمهم ، وقد خطبها الى ابيها احد ملوك الجزيرة وهو نور الدين بن محمد بن قرا ارسلان بن داود بن سكيان بن ارتق ملك حصن صيفا التي عرفت في الاخير بحسن كيف ، ثم آمد المعروفة اليوم بدياربكر ، وكان هذا الملك من خلفاء السلطان صلاح الدين يوسف الايوبي ، فتزوجها نور الدين وأعطاه ابوها عدة حصون كانت تجاور مملكته

لتوسيع امارته ، ومكنت سلجوقه خاتون برهة في عاصمة زوجها
 حصن كيفا ، ثم أساء عشرتها ومعاملتها وأحب مغنية وشغفته حباً
 فتزوجها ومال اليها كل الميل ، فحكمت في بلاده وخزائنه وأمواله ،
 واعرض عن سلجوقه خاتون وتركها نسياً منسياً . فبلغ ذلك
 اباها قليج ارسلان ، فعزم على السير بجيش كثيف الى نور الدين
 محمد بن قرا ارسلان واخذ بلاده منه جزاء له بما صنع بابنته من
 سوء العشرة والاضرار عليها ، وهجرها هجراً متصلاً ، فكتب
 نور الدين الى السلطان صلاح الدين يستغيثه ويستجير به ، ويطلب
 اليه منع السلطان قليج ارسلان من احتلال بلاده والاستيلاء
 عليها ، فأرسل صلاح الدين رسولاً الى قليج ارسلان ، يحذره عاقبة
 ما عزم عليه ويتهده بان اسير الى لقائه اذا تحرك هو نحو بلاد
 نور الدين ، فبعث اليه قليج ارسلان برسالة يقول فيها « اني كنت
 قد سلمت الى نور الدين عدة حصون تجاور بلاده لما تزوج ابنتي
 سلجوقه خاتون ، فحيث آل الامر الى ما يعلمه صلاح الدين نفسه
 فأنا اريد ان يعيد إلي نور الدين ما اخذه مني . وترددت
 الرسل بينهما فلم تستقر الحال بالمراسلة ، فهاذن صلاح الدين الفرنج
 المعروفين بالصليبية وسار في عساكره سنة ٥٧٦ نحو بلاد الروم
 حتى وصل الى رعبان بين حلب وشمشاط قرب الفرات ، فأثاه فيها
 نور الدين بن قرا ارسلان واقام عنده ، فلما سمع قليج ارسلان
 يقرب صلاح الدين منه ارسل اليه اكبر امرائه وقال له : « قل
 لصلاح الدين ان هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا وكذا ولا بد
 من ان اقصد بلاده واعرفه بحل نفسه . فلما وصل الرسول

واجتمع بصلاح الدين وأدى إليه رسالة ملكه امتنع صلاح
 الدين وقال له قل لصاحبك : « والله الذي لا إله إلا هو ، لئن لم
 يرجع لأسيرين إلى ملطية وبينني وبينها يومان ولا أنزل عن فرسي
 إلا في البلد ، ثم أقصد جميع بلاده وأخذها منه » . فرأى الرسول
 امرأ شديداً ، فقام من عنده ، وكان قد رأى عسكر صلاح الدين
 وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب وغير
 ذلك بما ليس عند قليج أرسلان ما يقاربه ، فعلم أن صلاح الدين
 أن قصدهم أخذ بلادهم ، ولكن هذا الرسول لم يئأس من النجاح
 بل أرسل إلى صلاح الدين من الغد يطلب أن يجتمع به ثانية ،
 فأمر باحضاره فقال لصلاح الدين أريد أن أقول شيئاً من عندي
 ليس رسالة عن صاحبي وأحب أن تنصفتني ، فقال له قل ، قال :
 يا مولانا أما هو قبيح بمثلك وانت من أعظم السلاطين وأكبرهم
 شأنًا ، أن تسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج وتوكت الغزو
 ومصالح المملكة ، وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيك
 والمسلمين عامة ، وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة
 والقريبة ، وخسرت أنت وعساكرك الأموال العظيمة لأجل مغنية
 رقيقاء ، فما يكون عذرك عند الله ثم عند الخليفة وملوك الاسلام
 وكافة العالم ؟ وأحسب أن أحداً لا يواجهك بمثل قولي ، ولكن ألا
 يعلم الناس ذلك ؟ ثم أحسب أن قليج أرسلان مات وهذه ابنته
 سلجوقه خاتون قد أرسلتني إليك تستجيروك وتسألك أن تنصفها
 من زوجها ، فإن فعلت فهو الظن بك أن لا تردّها . فقال صلاح
 الدين له : والله الحق بيدك وإن الأمر لكما تقول ، ولكن هذا

الرجل دخل عليّ واستجار بي ، ويقبح بي تركه ، لكنك انت
اجتمع به ، واصلاح الحال بينكم على ما تحبون وانا اغنيكم عليه
واقبح فعله . ووعده صلاح الدين من نفسه بكل جميل . فاجتمع
الرسول بصاحب الحصن نور الدين وتردد القول بينهم ، فاستقرت
الحال على ان يخرج نور الدين المغنية من عصمته بعد سنة ، فان
لم يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ويكون هو وابوها قليج
ارسلان عليه ، واصطلحوا على ذلك ، وشاد صلاح الدين الى بلاد الشام
ورجع نور الدين الى حصن كيفا فلما انقضت المدة اخرج نور الدين
المغنية من بلده فتوجهت الى بغداد واقامت بها الى آخر حياتها .
وفي سنة ٥٧٩ هـ حجت سلجوقه خاتون الى بيت الله الحرام في
موكب عظيم فخم وتجمل كثير وابية ملوكية ، وكانت
في طريقها الى مكة قد مرت ببغداد وسافرت صحبة امير الحاج
العراقي ابي المكارم طاشتكين بن عبد الله المستجدي من كبار امراء
الدولة العباسية ، وكان حجبها في خلافة امير المؤمنين ابي العباس
أحمد الناصر لدين الله العباسي ، وقد رآها الأديب الكبير الرحالة
الشهير ابن جبير الكنافي وذكر أن عمرها يومذاك نحو من خمس
وعشرين سنة ، وان لها كثيراً من افعال البر في طريق الحاج . منها
سقي الماء للسبيل ، على ثلاثين ناضحة من الابل ، وتفرقة الطعام على
ثلاثين ايضاً ، ومعها لما تختص به من كسوة وأزودة وغيرها نحو
مائة بعير . وذكر ان معها في الراكب خاتونين أخريين ولكنها
كانت عظامهن ، ووصفها مرة قال : فجاءتنا خاتون المسعودية
المترفة شبابا وملكا ، وهي قد استقلت في هودج موضوع على

خشبتيْن معترضتيْن بين مطيْتيْن ، الواحدة أمام الأخرى وعليهما
الجلال المذهبة وهما تسيْران بها سير النسيم ، سرعة وليناً ، وقد
فتح لها امام المودج وخلفه بابان وهي ظاهرة في وسطه منتقبة ،
وعصابة ذهب على رأسها ، وأمامها رِعل من فتيانها وجندها ،
وعن يمينها جنائب المطايا والهاليج العتاق ، ووراءها ركب من
جواريا قد ركب المطايا والهاليج على السروج المذهبة ، وعصبن
رؤوسهن بالعصائب الذهبيات والنسيم يتلاعب بعذابتهم ، وهن يسرن
خلف سيدهن سير السحاب ، ولها الرايات ، والطبول ، والبوقات
تضرب عند ركوبها وعند نزولها ، وابصرنا من نحوه الملك النسائي
واحتفاله رتبة تهن الأرض هذا ، وتسحب أذيال الدنيا عزا ، وبحق
ان يكون لها هذا الفز ويخدمها العز فان مسافة مملكة ابيها نحو
الأربعة أشهر وصاحب القسطنطينية يؤدي اليه الجزية وهو من
العدل في رعيته على سيرة عجيبة من موالاة الجهاد على سنة مرضية ...

ووصف زيارتها للروضة النبوية المنورة بالمدينة قال : ومن
عجيب ما شاهدناه من الامور البديعة الداخلة مدخل السمعة
والشهرة ، ان احدي الخواتين المذكورات وهي بنت الأمير مسعود
المتقدم ذكرها وذكر ابيها وصلت عشي يوم الخميس السادس للمحرم
ورابع يوم وصولنا المدينة ، الى مسجد رسول الله - ص - واكبة
في قببها وحولها قباب كرائثها وخدمها والقراء أمامها والفتيات
والصقالب بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها ، ويدفعون الناس
امامها ، الى ان وصلت الى باب المسجد المكرم فنزلت تحت ملحفه
مبسوطة عليها ، ومشت الى ان سلمت على النبي - ص - والحول

امامها والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها إشادة بذكرها ، ثم
 وصلت إلى الروضة الصغيرة التي بين القبر الكريم والمنبر ، فصلت
 فيها تحت الملحفة والناس يتزاحمون عليها ، والمقامع تدفعهم عنها
 ثم صلت في الحوض بازاء المنبر ثم مشت إلى الصفحة الغربية من
 الروضة المكرمة فقعدت في الموضع الذي يقال انه كانت مهبط
 جبريل - ع - وأرختي الستر عليها وقام فتياها وصقالبها وحجابها
 على رأسها خلف الستر تأمرهم بأمرها . واستجلبت معها إلى
 المسجد حملين من المتاع للصدقة فما زالت في موضعها إلى الليل « إلى
 أن قال : « أزيل الستر عنها وبقيت بين خدما وكرامها متلعة في
 رداها ، فعائنا من امرها في الشهرة الملوكية عجباً » ، وذكر صفة
 دخولها الموصل قال : ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جوارها
 وامامها عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد حلت قبها كلها سبائك
 ذهب مصوغة أهلة ودنانير ، سعة الأكف ، وسلاسل ومناثيل بديعة
 الصفات ، فلا تكاد تبين من القبة موضعها ، ومطياتها تزحفان بها
 زحفاً وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ، ومطاياها مجللة الأعناق
 بالذهب ومراكب جوارها كذلك ، وبمجموع ذلك الذهب لا يحصى
 تقديره ، وكان مشهداً بهت الابصار وأحدث الاعتبار . وقد
 وصفها غير مرة بالعبادة والخير وإيثار أفعال البر من صدقات
 ونفقات في السبيل والمحبة للصالحين وزيارتهم متسكرة لأجل الثواب .
 وقد ذاعت أخبار جمالها في العراق وغيرها من الاقطار ، وبلغت
 الامام الناصر لدين الله الخليفة العباسي ، ثم توفي عنها زوجها نور
 الدين محمد بن قرا ارسلان سنة ٥٨١ فارسل الخليفة الناصر لدين

الله بخطبها الى ابيها فكان ذلك تشریفاً له ولا بنته سلجوقه خاتون
 وأجابه الى توبيخها به شاكرآ ، فأرسل الناصر لدين الله لاحتضارها
 الشيخ ابا يعقوب يوسف بن احمد الشيرازي ثم البغدادي المحدث
 الصوفي شيخ رباط ارجوان ، فجاء بها الى بغداد سنة ٥٨٢ ،
 ودخلت في عصمة الخليفة ، وشغف بها واغرم بحبها ، وحلت من
 قلبه المحل الاسمي ، وامرت ان يبني لها رباط اي تكية ، وتربة
 اي مدفن وذلك يدل على صلاحها وعبادتها وتقواها ، فشرع في
 بنائها في الجانب الغربي من بغداد على دجلة في محلة باب البصرة ،
 ووالى الاشراف على ذلك الشيخ الفقيه الواعظ عبد الوهاب بن
 الشيخ عبد القادر الجيلي المعروف بالجيلاني الحنبلي ، ولكنها توفيت
 - رحمة الله عليها - قبل فراغ العمارة ، فدخل على الخليفة
 الناصر من الحزن عليها ما لا يوصف ، ووجد بها وجدأ عظيماً ظهر
 للناس كلهم . وبني ابواب قصرها حتى لا يرى ما يذكره اياها .
 وكان لا يتمالك عن البكاء اذا ذكرها احد ، واظهرت الدولة
 العباسية كلها حدادها عليها ، ولبس ارباب الدولة من الوزير وغيره
 الثياب البيض . وكان البياض علامة حزن العباسيين إذ ذاك ، وعمل
 لها عزاء عظيم ، ودفنت في تربتها في الجانب الغربي من بغداد .
 وكانت هي والرباط اعني التكية في الموضع المعروف بالخضر
 الياس في ايامنا . ثم جرفت دجلة هذين البنائين العظيمين ، وكان
 فتح الرباط والتربة سنة ٥٨٦ وحضره خلق عظيم ، وكان يومه عظيماً
 مشهوداً ، وجعل الناصر في تربتها خزانة كتب عظيمة حوت
 كثيراً من الكتب الجليلة المكتوبة بالخطوط المنسوبة . ومن رأى

هذه الحزاة واقتبس منها كمال الدين عمر بن العديم القاضي الاديب
 المشهور مؤلف دفع التجري عن ابي العلاء المعري ، فقد زارها
 سنة ٦٥٠ ونقل منها قصة الاعسر بن مهارش الكلابي وعشقه
 للصقيل بنت طراد الاسدية ، وراها معه ابو الحسن علي بن سعيد
 الأديب الجغرافي المؤرخ صاحب المعجب في اخبار المغرب وغيره
 من الكتب ، وصورة هذه العمارة واضحة في مصورة بغداد
 التي صورها الاستاذ مطراقي في عهد السلطان سليمان القانوني العثماني ،
 بعد فتحه بغداد سنة ٩٤٠ وآخر من رآها ووصفها نيبهر الرحالة
 الكبير المشهور ، فانه لما دخل بغداد في اواسط القرن الثاني
 عشر للهجرة اي اواسط القرن الثامن عشر ، رأى العمارة المذكورة
 ورأى في التكية جماعة من الصوفية البكتاشية ، ونقل ما بقي من
 الكتابة على جدرانها وفيها اسم قليج ارسلان السلجوقي ، إذن
 كان اسم سلجوقه خاتون قد عفا او تهدم لان الاصل « سلجوقه
 خاتون بنت قليج ارسلان » . ولقد حار جماعة من المستشرقين
 في سبب وجود اسم السلطان المذكور هناك مع انه حكم في قونية
 وبلاد الروم ، وذهبت بهم الظنون مذاهب شتى في كيفية بنائه
 لمثل تلك التكية . واذ كانوا كغيرهم لا يعرفون تاريخ صاحبة
 القبر والتكية بقوا في مناوذه ظنونهم ، اما اليوم فلم يبق من
 تلك العمارة اي اثر كان ، فقد جرفتها دجلة - كما ذكرنا آنفاً .
 ولسبط بن التعاويذي الشاعر المشهور قصيدة في رثاء سلجوقه
 خاتون مثبتة في ديوانه يقول فيها :
 فيا قبر ما بين الصراة ودجلة الى نهر عيسى جادك الغيث من قبر

السيدة هاجر

زوجة المستنصر بالله وأُم المستعصم بالله

هذه سيرة مختصرة لسيدة جليلة ، من سيدات دار الخلافة العباسية ببغداد .

هذه السيدة الكريمة التقية ، هي هاجر زوجة المستنصر بالله ، وأُم المستعصم بالله . وكانت في أول أمرها جارية من الجواري ، فأولدها المستنصر بالله ولدين ذكرين هما الأمير أبو القاسم عبد العزيز ، والأمير أبو أحمد عبدالله الذي صار بعد وفاة أبيه المستنصر خليفة وأميراً المؤمنين .
انها الى كونها زوجة خليفة وأُم خليفة ، كانت على قاعدة جميلة ، راغبة في فعل الخيرات والمواصلة للفقراء بالبر والاحسان .
ولقد أمرت ببناء رباط للصوفية بشارع ابن رزق الله بالجانب الغربي من بغداد ، وكان الرباط في شرقي قبر الشيخ الجليل معروف الكرخي . وأمرت أيضاً ببناء تربة لنفسها بجانب الرباط ، ثم توفيت سنة ٦٤٦ هـ قبل إقامه ، فدفنت في تربتها تحت القبة ، وكان لها سبيل في طريق الحج ، ينفق فيه على فقراء الحجاج والمنقطعين في طريقه ويسقي العطاشي . وفي سنة ٦٥٠ هـ فتح هذا الرباط ، وحضر فتحه ابنها الخليفة المستعصم بالله ، ووزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي وأرباب الدولة كافة . وكان الخليفة المستعصم بالله قاعداً على سطح الرباط ، وعملت فيه دعوة عظيمة

وخلع على كل من تولى عمارته ، منهم الشيخ العلامة الاديب
 المؤرخ ظهير الدين علي بن محمد الكازروني الاصل ثم البغدادي .
 وقد ذكر حكاية طريفة في بناء هذا الرباط ، قال في أحد توارخه :
 كنت أتولى عمارة الرباط المستجد ، فجاءني شقاق يشق الصخر ،
 وقال لي : قد رأيت عجباً وينبغي أن تشاهده ، فقمتم معه ،
 فأراني صخرة قد انفلقت عن موضع قد تعداه المنشار ، وفيه
 أوراق خضر ودودة تضطرب ، فأخذت الدودة والورق وجعلته
 في قرطاس وختمت عليه ، وحملته الى الشيخ صدر الدين علي بن
 النيار ، فحمله الى الخليفة المستعصم بالله ، فعجب من قدرة الله
 - عز وجل - ثم إن المستعصم بالله حضر وشاهد الصخرة ،
 ولم يكن عليها سبيل من ظاهرها ، وكان هذا المؤرخ من الثقات .
 وكانت السيدة هاجر قد حجت في ابتداء خلافة ابنهما
 وذلك سنة ٦٤١ هـ وكان أمير الحاج ابو الميا من مجاهد الدين
 أيبك المستصري أحد ممالك الدولة العباسية . وقبل أن
 يذهب الى مكة المكرمة تلك السنة خلع عليه في دار
 الخلافة العباسية ، وعبر الى الجانب الغربي من بغداد مع
 جنوده الذين هم برسم حماية الحجاج ، وكان فيهم أمير يعرف
 بحسن الدين قيران ، فنزل في تربة زمرد خاتون المعروفة اليوم
 بالست زبيدة ، وخرجت هاجر أم المستعصم بالله من دار الخلافة ،
 وانحدرت في دجلة في شبرة ابنها الخليفة المستعصم بالله ، والشبرة
 سغبنة كاليخت ، ثم خرجت من دجلة عند قرية درزيجان ، وكانت
 على دجلة في الجانب الغربي ، قريبة من بغداد ، وخرج ابنها

المستعصم بالله على البر لبودعها وضرب له هناك سراق ، فلما دخل السراق نثر عليه شرف الدين اقبال الشراي قائد جيوش الدولة العباسية ذهباً كثيراً ، ولم يكن المستعصم قبل ذلك قد سافر سافراً نزل فيه نجياً ، ولما وصل الى الحلة مع والدته دخل داراً لهم على شاطئ الفرات ، فنثر عليه شرف الدين الشراي ايضاً ذهباً كثيراً ، ثم توجه المستعصم الى الكوفة ودخل جامعها ، ثم قصد مشهد الامام علي - سلام الله عليه - فزاره ، وكان المزور له الشريف محمد بن كتيبة العلوي ، فلما توجه الحاج الى بيت الله الحرام ودع المستعصم بالله والدته هاجر وعاد الى بغداد .

ووصلت السيدة الى بيت الله الحرام وحجته ، وتصدقت فيه بمال كثير ثم عادت متوجهة الى بغداد في السنة القابلة - اعني سنة ٦٤٣ - ، وامر شرف الدين اقبال الشراي وكيله عز الدين الحسين بن عبدوس ، بالمسير الى واقصة ، من طريق الحج ، بين العراق والحجاز ، ليلقى فيها والده الخليفة وفي عائدة من مكة ، وانفذ معه تسعين رجلاً عليها تشريفات وحلواء وحوائج وغير ذلك ، ثم امر صدر الخزن - وكان صدر الخزن كوزير المال في الرتبة - ومشرفه عميد الدين منصور بن عباس الدجيلي بالتوجه ايضاً الى تلك المنزلة . وأمر بان يستصحبها معها ما اعداه من الاقامات ، والاقامات هي حوائج العيش للمسافرين القادمين ، وذكر ان فخر الدين المبارك بن المحرمي ، صاحب الديوان - وكان صاحب الديوان كوزير الداخلية - ، حمل الى السيدة هاجر من البصرة حولاً على ستة عشر رجلاً ، فيها حلوى واقراص ماء الليمون وماء

الليمون والخضرم وخل العنب من مصعد اي مقطر وغير مصعد ،
وماء الورد والخلاف وهو نوع من الصفصاف ، وقشور الطلع
وشربات وليمون اخضر واترُج وتفاح وكثيرى ، وخوخ ونارنج
ورمان وعنب وباذنجان ، ومع ذلك حضر بصرية وسجادة رفيعة ،
فوصلت الاوصاف الى الشعبية فتسلمت .

وعزم المستعصم بالله على التوجه الى الكوفة للقاء والدته ، فعرض
له مرض منعه من ذلك ، وحضر الامر الى ارباب الدولة العباسية كافة ،
بالحجروج الى قرية فراشا من قرى نهر الملك ، وكانت بين الحلة وبغداد
والى بغداد اقرب ، لاستقبال والدة الخليفة ، فخرجوا ما عدا الوزير
نصير الدين احمد بن الناقذ لبعظه عن الحجروج بسبب مرضه ، فساروا الى
زيربان ، وهي قرية كانت يازاء المدائن اي سلمان باك من الجانب
الغربي ، فوجدوا سرادقات السيدة هاجر وامير الحاج بها ، فكان كل من
ارباب الدولة ينزل على بعد من سرادق السيدة ويستأذن في ان
يحضر ، فيؤذن له فاذا حضر قبل الارض بباب السرادق ، فيخرج
امين الدين كافور الظاهري فيقول له : « قد عرفت خدمتك » او
ما هذا معناه ، ويأذن له في العود . ثم نزلت السيدة بالليل في
شبابرة الخليفة واصعدت الى بغداد ، وذلك بعد ان خلعت على
امير الحاج ابي الميامين ايبك الدويدار ، وامرت له بخمسة عشر
الف دينار ، وخلعت على القائد حسن الدين قيراث وامرت له
بألف دينار .

ولما نزل الحاج بظاهر تربة زمرد خاتون - كما فعلوا في ذهابهم -
لفد شرف الدين عبد الله بن قاج الدين بن النيتار ، وهو وكيل

والدة الخليفة ، والعدل ضياء الدين عبد الوهاب بن سـكـينة وهو الخازن ، وابن بكران وهو نائب الوكيل ، وضربت لهم خيمة خلف تربة زمرد خاتون ، وخلعوا على كل من كانت في خدمة السيدة في حجها من النواب والاتباع والفراسين ، والمحفارية اي التختروانية والجمالين والسقائين والحداة الذين كانوا يحدون الجمال ، والساقفة الذين كانوا يسوقونها والنقاطين والحراس .

ومن اخبار تربة السيدة هاجر ان قائد الجيوش العباسية شرف الدين اقبالا الشراي ، دُفن بباب قبعتها على يمين الداخل ، وذلك في سنة ٦٥٣ ، وكان من العارفين لفنون الحرب وارباب الدهاء في القتال وقيادة الجيوش ، الا انه قصر في اختيار المستعصم بالله وجعله خليفة ، وتنحيته اخيه الامير ابي القاسم عبد العزيز بن المستنصر بالله ، وكان سوء اختياره هذا من اسباب سقوط الدولة العباسية ، لأن حسن الاختيار في الدول الوراثية الحكم والسلطان شرط في استقامة الدولة وسلامتها ، وبقائها وغناها ، فان لم يكن وجه للاختيار لكون الوارث الاقرب واحداً ، كان الحكم من القضاء المحتوم والقدر المحتوم ، كما جرى في خلافة الظاهر بامر الله بعد الناصر لدين الله ، فأدى ذلك الى ضعف الدولة العباسية ، وانحلالها ثم زوالها .

السيدة باب بشير

زوجة المستعصم بالله

هي السيدة باب بشير ، زوجة الخليفة الشهيد ، ابي عبد الله الملقب بالمستعصم بالله بن الخليفة المستنصر بالله ، وهي التي بنت المدرسة البشيرية بالجانب الغربي من بغداد ، ونحن ذاكرون تاريخها في سياق كلمتنا هذه ، والموضع الذي بنيت فيه . من المعلوم المشهور أن الخليفة المستعصم بالله كان آخر الخلفاء العباسيين ببغداد ، وأن المغول المعروفين بالتتار قتلوه ، وقرضوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م .

وكان للمستعصم بالله قبل ان يدرك الخلافة جارتان ، ولدت له احدهما ثلاثة بنين وابنة واحدة ، وولدت له الأخرى اربع بنات ، ولما افضت الخلافة اليه لم يتغير عليها ولا أغارهما بل راعاهما حفظاً لعهدهما ، ثم طلبت اليه ام البنين ان يعتقها من العبودية والرق ويتزوجها ، ففعل ذلك متبعاً آثار من تقدمه من خلفاء بني العباس .

ولما ماتت ام البنين اتخذ المستعصم حظية اخرى ، يظهر لنا انها باب بشير التي قصرنا حديثنا الليلة عليها ، فولدت له ولداً ذكراً سماه محمداً وكناه بأبي نصر ، ثم طلبت منه ان يعتقها ويتزوجها ، فأجابها الى ذلك .

ان التسمية بباب بشير تبدو لنا غريبة اول وهلة ، فاذنا
استقرينا اسماء النساء وكناهن في تلك الايام ، بانث التسمية مألوفة
مأنوسة . فقد كانوا يكتنون عن السيدة العظيمة المتزوجة بالجهة ،
واشتهرت بنت للخليفة المستنجد بالله بحجرة عفيف ، وأمثال ذلك
كثير في تاريخهم .

ولقد تركت هذه السيدة الكريمة العظيمة - اعني باب بشير -
آثاراً جميلة ، ومآثر حسنة ، مقتدية بمن سبقها من امهات الخلفاء
وزوجاتهم وحظاياهم وحسن الاقتداء دليل على جمال الابتداء ، ومن
تلك الآثار : دار للقرآن الكريم ، ومدرسة للمذاهب الاربعة على
قاعدة المدرسة المستنصرية ، فان المدارس كانت قبل المستنصرية
طائفية - اعني ان كل مدرسة تخص بذهب من المذاهب ، فبني
المستنصر سنة ٦٣٩ المدرسة التي اضيفت الى اسمه ، وجعلها
للمذاهب الاربعة : الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية ، فكان
ذلك مشروعاً محموداً في التدريس ، وطريقة حسنة في تأسيس
المدارس وذريعة من ذرائع التآخي والتآلف والتصافي والتعارف .
ومن اسرع في تقليد المستنصر بالله في ذلك العمل الصالح ، الملك
الصالح نجم الدين ايوب بن الملك العادل الايوبي ملك مصر ، فقد
بنى سنة ٦٣٩ وما بعدها مدرسة كبيرة في القاهرة بين القصرين ،
ووقفها على المذاهب الاربعة فدرست فيها .

وفي سنة ٦٤٩ أمرت السيدة باب بشير بان تبني لها مدرسة
على هذه الطريقة الحمودة ، فاخط لها موضع تجاه محلة قطفتا ، بالجانب
الغربي من بغداد ، وهي المحلة التي كانت تحاذي قبر الشيخ الزاهد

معروف الكرخي من الشرق ، فالمدرسة كانت في شرقي القبر
المذكور ولا اثر لها اليوم . وامرت ايضاً أن تبقى لها دار للقرآن
الكريم ، ففتحت هذه الدار في سلخ شعبان من سنة ٦٥٢ ، وكانت
على شاطئ دجلة ، بالجانب الغربي من بغداد ولم نتحقق موضعها ،
واستبدع بناء المدرسة ، فتوفيت هذه السيدة قبل تكامله ، وذلك
في قاسع شوال من سنة ٦٥٢ ، فدفنت تحت قبة أعدتها لنفسها
بجانب المدرسة ، وتوفي بعدها ابنها ابو نصر محمد بن المستعصم بالله
ودفن عند قبرها تحت قبتها .

وفي سنة ٦٥٣ بعد وفاتها فتحت مدرستها المعروفة بالبشرية ،
وكانت قد وقفت عليها وقوفاً كثيرة ، وكان افتتاحها في يوم
الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من السنة ، وحضر
المدرسة الخليفة المستعصم بالله وأبنائه ، وجلسوا في وسطها ، وحضر
الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي وأرباب المناصب ومشايخ الربط
والمدرسون ، وكان المدرسين فيها سراج الدين النهرقلي (نسبة الى
نهر القلائين) للمتفقه الشافعية ، ونور الدين محمد بن الغربي الحواري
للحنفية ، وعلم الدين احمد بن الشرمساحي المصري للمالكية ،
وشرف الدين عبدالله بن محي الدين يوسف بن الجوزي للحنابلة ،
وعملت فيها وليمة عظيمة ، وخلع على المدرسين المذكورين وعلى
الناظر فيها ونواب العمارة ، وعلى الفرائشين وخدم قبة السيدة باب
بشير ، وأنشدت أشعار كثيرة ، وكان يوم افتتاحها يوماً مشهوداً
من أواخر الايام العباسية .

ومن مدرسي هذه المدرسة المشهورين بعدئذ فخر الدين عبدالله

ابن عبد الجليل الطهراني الحنفي المتوفى سنة ٦٦٧ . قيل كان هذا
المدرس في وقعة هولاء ممن يخرج الفقهاء من بغداد الى باب
السور عند محيم السلطان الجبار هولاء كو ليقتلوا هناك . وذلك له
بئس الخبر ، وأقبح الاثر ، ومنهم نور الدين علي بن الاطلي الحنفي
وتاج الدين عبد الرحيم بن يونس الموصلي الشافعي ، وصدر الدين
محمد بن شيخ الاسلام الهروي ، ومجد الدين علي بن جعفر ، وجمال
الدين عبدالله بن العاقولي المدفون في الحلة العاقولية في قبر
مشهور مجاور لمدرسة التقيض ، وهو من نسل النعمان بن المنذر ،
وابن عبد الحق عبد المؤمن مؤلف كتاب « مرصد الاطلاع على
الامكنة والبقاع » وغيره من الكتب الحسنة ، ونور الدين ابو طالب
عبد الرحمن بن عمر البصري ، مؤلف التفسير الموسوم « بجامع العلوم
في تفسير كتاب الله الحي القيوم » وغيره من جليل الكتب .

وكان في هذه المدرسة كتب موقوفة عليها ، منها الكتاب
الموسوم بالعيون والنسك ، وجد على المجلد الخامس منه
نص وقفته ومنها « هذا ما وقفه وتصدق به الجهة الشريفة
المكرمة ، المقدسة الزكية المعظمة ، السيدة الكبيرة الرضية الامينة
الرحيمة ، الرؤوفة النبوية الامامية الطاهرة البرة ، جهة سيدنا
ومولانا الامام المفترض الطاعة على جميع الانام ، آبي أحمد عبد الله
ابن المعتصم بالله امير المؤمنين ، ثبت الله دولته وأعلى كلمته ،
على طلاب العلم ، رغبة فيما عند الله من حسن الثواب ، وذخراً
صالحاً ليوم المآب ، وامرت ان يكون بالمدرسة الميمونة التي
امرت بانشاءها ، بظاهر محلة شارع ابن رزق الله ، بالجانب الغربي

من مدينة السلام ، وان يعار برهن ضامن للقيمة ، وكتب في
شهر رمضان المبارك من سنة ٦٥٢ وصلى الله على سيدنا محمد وآله ،
وبهذا استدللنا على موضع الشارع المذكور .

اما دار القرآن التي امرت ببنائها ، فقد فتحت في حياتها كما
ذكرنا قبل هذا ، فمن تولى مشيختها سراج الدين ابو حفص عمر
ابن علي القزويني ثم الواسطي ثم البغدادي المتوفى ببغداد سنة ٧٥٠ ،
وقبره معروف حتى اليوم بقبر سراج الدين (على ما قاله فاضل
معاصر) في محلة سراج الدين المنسوبة اليه قرب العوينة ، وكنا
نظنه قبر رجل آخر ، فعدلنا عن ذلك الظن ، لرجحان القول
الثاني ، وايكون المؤلف الذي اعتمدنا عليه اولاً بمن لا يعتمد
عليهم في مثل هذه الامور الدقيقة . ومن حسن التوفيق لهذه السيدة
الصالحة ، انها توفيت قبل سقوط الدولة العباسية بأربع سنوات ،
وكان الموت وهو خير نزال على الحرم ، خيراً لها من مشاهدة
العاقبة الفاجعة ، والمصيبة العظمى والكارثة الكبرى ، قتل زوجها
الخليفة المستعصم بالله افطع قتلة ، واستئصال امراء بني العباس
ونسائهم جميعاً اشنع استئصال ، تلك المذبحة الهائلة الشيعة الفطية ،
الوحشية التي امر بها اللعين الجبار هولاء كوخان ، فأتيت في
مقبرة عبد العزيز بن جعفر الحلال المعروف اليوم بالشيخ الحلافي ،
ففي هذه المقبرة سالت دماؤهم كالنهر ، وسقطت جثثهم هامدة
مخرجة بالدماء ، ولم يرحم منهم شيخ ولا امرأة ، ولا صبي
ولا طفل ولا عجوز ، ولا خادم ، وهو حدث تقشعر منه الابدان ،
على طول الازمان .

شمس الضحى زوجة ابي العباس

ابن المستعصم بالله

هذه السيدة شمس الضحى واسمها شاه لبني هي بنت عبد الخالق ابن ملكشاه بن صلاح الدين يوسف بن ايوب الايوبية ، وعبد الخالق هو ابن اخي الملك الناصر صلاح الدين ابن ايوب ، تزوجها ابو العباس احمد بن الخليفة المستعصم بالله الشهيد ، وصارت من سيدات دار الخلافة العباسية ، ولم نجد فيما تحت ايدينا من التواريخ سنة ولادة شمس الضحى ، وانما نعلم ان زوجها ابا العباس ولد سنة احدى وثلاثين وستائة للهجرة ، سنة افتتاح المدرسة المستنصرية في عهد جده المستنصر بالله ، وانها رزقت منه ثلاثة اولاد : ذكر واحد واثنين ، فالابن هو ابو الفضل محمد واليبتان هما رابعة وكان مولدها يوم عيد الاضحى من سنة ٦٥٥ وست الملوك ، وخطب لزوجها المذكور بولاية عهد الخلافة العباسية ، الا ان الاقدار وسوء الالة والاختيار ، والتعصب المذهبي ، وغلبة الجهال على امور الدولة العباسية عجلت بسقوطها وهبوطها ، واستولى هولاكو خان على بغداد في اليوم الحادي والعشرين من المحرم من سنة ٦٥٦ هـ ، وخيم في شرقي الباب الشرقي من بغداد ، فخرج اليه الخليفة المستعصم بالله والوزير مؤيد الدين ابو طالب محمد بن العلقمي ، ومع الخليفة جمع كثير ، فلما صاروا الى ظاهر سور بغداد ،

منعوا أصحابه من الوصول معه ، وأفردوا له خيمة فأسكن فيها ،
ثم خرج ابنه أبو العباس أحمد زوج شمس الضحى يوم الجمعة ثاني
صفر من سنة ٦٥٦ هـ ، ثم عاد الخليفة المستعصم بالله إلى بغداد في
الرابع من صفر ، ومعه جماعة من أمراء المغول فأخرج لهم من
دار الخلافة كثيراً من الأموال ، والجواهر والحلي والزركش
والثياب وآواني الذهب والفضة والأعلاق النفيسة ، ثم عاد معهم
إلى مخيم هولاءكو ظاهر السور في بقية ذلك اليوم . فأمر هولاءكو
اللعين بقتله ، فقتل يوم الأربعاء رابع عشر صفر ، ولم يبق دمه بل
جعل في غرارة أي شالية ورفس وديس حتى مات ، ودفن وعفي
أثر قبره . ثم قتل ابنه أبو العباس المذكور وأخوه أبو الفضل
عبد الرحمن بن المستعصم بالله ، وأزيلت الدولة العباسية .
وكان سقوطها فاجعة عظيمة أليمة ، ومصيبة جد أليمة أصابت
الامة في صميمها وأحمت قلبها وأذهبت عزها ، وأهلكت سلطانها .
لا جرم أن السيدة شمس الضحى شاه لبني زوجة ولي العهد
أي العباس ، أمست أئماً من زوجها ذات أيتام ، والحرب مائة
ميتة ، تترك النساء أيتام والأولاد يتامى ، هذا إلى كونها كابدت
أعظم الأهوال ، وقاست أفظع المصائب وشهدت أشد المشاهد
ترويعاً وتفجيماً .

ولما ولي هولاءكو خان سنة ٦٥٧ بلاد العراق علاء الدين
عطا ملك بن بهاء الدين الجويني ، ولقب بصاحب الديوان ، وكان
يدعي النسب إلى الفضل بن الربيع حاجب أبي جعفر المنصور ،
خطب علاء الدين شمس الضحى وتزوجها ، وسيرة زوجها الثاني

طويلة ، فانه تولى العراق من قبل الدولة الايلخانية الهولاكية
زهاء اثنتين وعشرين سنة ، ولاية اختلط خيرها بشرها ونفعها
بضرها ، وليس هذا محل الحكم لها ولا الحكم عليها ، الا انه كان
يحب الادب والعلم ويحيز عليها جوائز سنوية ، وهذا امر راجح في
ميزان تقدم الامم ذوات الثقافات العوالي . وكان هو اديباً اريباً
في الفارسية والعربية ، وله التاريخ المشهور الموسوم بجهان كشاي
اي فاتح العالم ، يعني به الملك القاهر جنكيز خان . وكان علاء
الدين كثير العبارة ، ومن عمارات عهده منارة جامع القصر
المعروف اليوم بجامع سوق الغزل ، فانها تم بناؤها سنة ٦٧٨ هـ ،
في سلطنة أبا قاسم خان بن هولاكو خان ، وقد مضى على بنائها ست
وثمانون وستائة سنة ، وتوفي علاء الدين سنة ٦٨١ هـ .

اما شمس الضحى شاه لبني فاتها احبت ان تبقي أثراً جميلاً كريماً
في الدنيا وفي التاريخ ، فأمرت ببناء مدرسة بجوار مشهد عبيد الله
العلوي ، ويعرف بقبر النذور ايضاً . ووصفه صاحب المراصد بان
بينه وبين سور بغداد - اي السور الباقي أثره شمالي القلعة -
نصف فرسخ ، وهذا يوافق قبر أبي رابعة شرقي الاعظمية . وفي
سنة ٦٧١ هـ تكاملت عمارة المدرسة المذكورة ، وسميت « المدرسة
العصمتية » نسبة الى نعتها « العصمة » ، ووقفها على الطوائف الاربع
الشافعية والحنفية والحنبلية والمالكية ، على نحو ما فعلت قبلها
السيدة باب بشير زوجة المستعصم بالله صاحبة المدرسة البشيرية ،
وفتحت المدرسة في تلك السنة ورتب بها من المدرسين القاضي
عز الدين ابو الغر احمد بن جعفر البصري للفقهاء الشافعي ، وعفيف

الدين ربيع بن محمد الكوفي للفقهاء الحنفي، وشرف الدين داود الجبلي للفقهاء الحنبلي، ومجد الدين شقيق الواعظ للفقهاء المالكي، وخلع على جميع المدرسين وعملت فيها وليمة عظيمة، وجعلت النظر في المدرسة أي إدارة أمورها، كما تقول اليوم، إلى شهاب الدين علي ابن عبد الله صدر الوقوف ببغداد، أي مدير الأوقاف وهو الذي أشرف على بناء منارة سوق الغزل، وجعلت الإشراف عليه إلى كل من ولي قضاء القضاة ببغداد، وبنت إلى جانب المدرسة تربة لنفسها ورباطاً للصوفية، وجعلت في المدرسة خزانة كتب كما كانت عادتهم.

وكانت في سنة ٦٧٠ هـ، زوجت ابنتها رابعة بنت ولي العهد أبي العباس أحمد بن المستعصم بالله، بشرف الدين هرون بن شمس الدين محمد الجويني، وهو ابن أخي زوجها الثاني علاء الدين عطا ملك، واشترطت عليه أن لا يشرب الخمر أبداً، فأجاب إلى ذلك، وعقد العقد وكتب كتاب الصداق على مائة ألف دينار من الذهب، العين الصحاح، وكان الكاتب للعقد بهاء الدين علي بن عيسى الأوبلي الكردي كاتب الإنشاء بديوان بغداد، ومؤلف كشف الغمة في مناقب الأئمة.

وفي سنة ٦٧٨ هـ توفيت العصمة شمس الضحى شاه لبني ببغداد، ودفنت في التربة التي بنتها بجوار مدرستها العصبية. قال بعض المؤرخين في ترحيلها: إنها كانت كثيرة الصدقات والإحسان والمبرات، وكانت تحب أهل بغداد وترعى مصالحهم وتقوم في شؤونهم وتساعدهم، ولعمري إن سيرتها وآثارها تدل

على أنها كانت سيدة عظيمة كريمة ذات خلق كريم وديانة صحيحة ،
وكان ذلك ظاهراً في أفعالها ولا سيما اشتراطها على زوج ابنتها
رابعة أن لا يشرب الخمر أبداً .

وفي سنة ٦٨٥ هـ في جمادى الآخرة منها توفيت ابنتها رابعة
ببغداد ، ودفنت في تربة والدتها عند مشهد عبيد الله العلوي ،
الذي قلنا يظهر لنا أنه كان عند قبر أبي رابعة شرقي الأعظمية .
ولعل هذا الاسم كان « أم رابعة » ثم صار أبا رابعة ، وكيفما
كان الأمر فإن اسم « رابعة » نفسها يدل على موضع القبر ، لأنها
دفنت عند أمها هناك ، وبعد وفاتها ورد الخبر ببغداد بأن السلطان
ارغون بن أبا قاخان بن هولاكوخان ، أمر بقتل زوجها شرف
الدين هارون في حدود بلاد الروم ، وكان هذا السلطان المغولي
يغض بني الجويني أشد بغض فأراد استئصالهم ، وقتلهم حتى
أطفالهم . وكان لرابعة من شرف الدين المذكور ابنان وابنة
واحدة ، فالابنان هما المأمون عبد الله والأمين أحمد والبنات
هي زبيدة .

أما المدرسة العصمتية فإن أخبارها بعد ذلك العصر قليلة بل
نادرة بل عزيزة ، ففي سنة ٦٨٣ هـ اتخذت سجناً لأرباب الدولة
في العراق التابعين للسلطان أحمد خان بن هولاكوخان ، وهم
شرف الدين هرون زوج زبيدة وشمس الدين زرديان نائبه في
بغداد ، وعز الدين المشارك في كتابة الديوان ، ونظام الدين
عبد الله بن قاضي البندينجين أي مندي وذلك لأن تولية السلطان
ارغون كانت كافية في اعتقالهم وإهلاكهم بعد شهرهم على أقبح

الصور واسمج الهيئات . وورد ذكرها في اخبار نور الدين عثمان
 ابن ابراهيم بن يعقوب بن عبد الملك الآمدي المالكي ، وكانت
 قد استنابه قاضي بغداد بدر الدين محمد بن علي الرقي الحنفي في
 الحكم والقضاء بالجانب الغربي من بغداد ، وجعل مدرسا في
 المدرسة العصمية ، وكان ورعا متدينا وتوفي سنة ٦٨٧ هـ .
 في سنة ٧٢٥ في عهد الملك بو سعيد بن محمد خرننده بن ارغون
 بن اباقا بن هولاكو غرقت بغداد افطع الفرق وأهوله ، وانهارت
 اكثر عماراتها في الجانبين ، وصارت بغداد كالجزيرة وسط بحر ،
 فماتت من عماراتها المدرسة العصمية ، وغرقت خزانة
 الكتب التي فيها ، وكانت تساوي اكثر من عشرة آلاف دينار ،
 هذا من حيث القيمة ، فأما العلم الذي درس معها فلا يمكن احدا
 التعويض عنه . وقيل في هذا الفرق ان الرجل كان يقف على
 سور بغداد فلا يرى على قدر مد بصره الا ماءً وسماً .
 وغرق ناس كثير وهلكوا ، واشتد الخطب وامتنع النوم من
 الضججات ، والفديد والجلبة خوف الفرق ، وسار أهل بغداد في
 الاسواق مكشفة رؤوسهم كالزاهقة نفوسهم ، وعمائمهم في رقابهم
 وهم يتلون القرآن ويستغيثون الله ويودع بعضهم بعضاً ايقاناً منهم
 بقرب هلاكهم ، وجاء ماء الفيضان بجيات عظيمة جدا ، ولما
 نضب الماء نبت في ارض بغداد عروق بطيخ شكله كشكل الخيار
 وطعمه فج ، ونبتت اشياء اخرى غريبة الشكل ، ولا شك في
 ان الماء هو الذي جاء ببذور تلك النباتات من الاصقاع الشمالية ،
 ولم نجد بعد هذا الفرق للمدرسة العصمية ذكرا ولا خبرا .

فهرست الكتاب

صفحة	
٣	مقدمة
٥	ام سلمة الخزومية
١٣	زوجة ابي العباس السفاح اولى سيدات البلاط العباسي الخيزران زوجة المهدي
١٩	ام هرون الرشيد ريطة بنت السفاح
٢٥	زوجة الخليفة المهدي علية بنت المهدي
٣٧	اخذت هرون الرشيد العباسة بنت المهدي
٤٤	السيدة زبيدة
٥٢	زوجة هرون الرشيد وأم الأمين السيدة بوران زوجة المأمون
٥٨	السيدة شجاع ام المتوكل على الله ومخارق ام المستعين بالله
٦١	السيدة مخارق
٦٤	السيدة فريدة صاحبة الواثق بالله زوجة المتوكل على الله
٧٥	السيدة قبيصة صاحبة المتوكل على الله وام المعتز بالله
٨٢	فضل صاحبة المتوكل
٨٨	السيدة شغب ام المقتدر بالله

صفحة	
٩٤	السيدة قطر الندى
١٠٠	زوجة الخليفة المعتضد بالله العباسي خديجة خاتون السلجوقية
١٠٨	زوجة الخليفة القائم بأمر الله السيدة بنت القائم بأمر الله
١٣٢	زوجة السلطان طغرل بك السلجوقي السيدة قرّة العين أرجوان
١٣٩	السيدة بنت ملكشاه السلجوقية زوجة الخليفة المقتدي بأمر الله
١٤٦	السيدة بنت ملكشاه الثانية زوجة الخليفة المستظهر بالله العباسي
١٥٣	فاطمة خاتون بنت السلطان محمد السلجوقي
١٥٨	السيدة زبيدة بنت المقتفي لأمر الله الست بنفشة
١٧٤	السيدة زمرّد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله
١٨٢	السيدة سلجوقة خاتون السيدة هاجر
١٩٠	زوجة المستنصر بالله وأُم المستعصم بالله السيدة باب بشير
١٩٥	زوجة المستعصم بالله شمس الضحى
٢٠٠	زوجة أبي العباس بن المستعصم بالله

DATE /

Search for T. *ت. قارون*

Search for Caliph al-Muqtafi

Search if Ja'far bin Mutazir was ever Caliph

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع

دار النشر

للنشر والتوزيع في بيروت - لبنان


بيروت - لبنان

في ٤ شباط سنة ١٩٥٠

لدة صاحبة الو
بالمشاكل ط. ل.

200 - 1111111111

14 JUN 1987



115030520

613191937

ACC - LIBRARY

D
198.3
J38
1950

14 JUN 1987

